تعليقات

على كتاب

تعظيم العلم

الشَّيخ صالح بن عبد الله العصيمي

حفظه الله

النُّسخة الإلكترونية الأولى

الشيخ لم يراجع التفريغ

بالتنسيق مع موقع: http://www.j-eman.com

بسم الله الرحمن الرحيم

السَّلام عليكم ورحمة الله وبركاته..

الحمدُ للهِ الذي صيَّر الدِّين مراتبَ ودرجاتٍ، وجعَلَ للعلمِ به أصولًا ومُهمَّاتٍ.

وأشهدُ أنْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ حقًّا، وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبْدُه ورسولُه صِدْقًا.

اللَّهمَّ صلِّ علىٰ محمَّدٍ وعلىٰ آل محمَّدٍ كمَا صلَّيتَ علىٰ إبراهيمَ وعلىٰ آل إبراهيمَ إنَّكَ حميدٌ مجيدٌ، اللَّهمَّ بارك علىٰ محمَّدٍ وعلىٰ آل محمَّدٍ كما باركتَ علىٰ إبراهيم وعلىٰ آل إبراهيم إنَّك حميدٌ مجيدٌ.

أمَّا بعدُ..

فحدَّثني جماعةٌ من الشُّيُوخِ -وهو أوَّلُ حديثٍ سمِعتُهُ منهم- بإسنادِ كلٍّ إلىٰ سفيانَ بن عُيَيْنَةَ، عن عَمرو بن دينار، عن أبي قابوسَ مولىٰ عبد الله بن عمرو، عن عبد الله بن عمرو بن العاصي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنَّ النبيّ ﷺ قال: «**الرَّاحمُون يرحمُهم الرَّحمٰن، ارحموا من في الأرض يرحمْكم من في السَّماء**»، ومن آكد الرَّحمة؛ رحمةُ المعلِّمين بالمتعلِّمين في تلْقينِهم أحكامَ الدِّينِ، وترْقِيَتِهم في منازل اليقين، ومِن طرائقِ رحمتهم إيقافُهم علىٰ مهمَّات العلم بإقراءِ أصول العلوم وبيان مقاصدِها الكليَّة ومعانيهَا الإجماليَّة؛ ليستفتح بذلك المبتدئون تلقِّيَهم، ويجدُ فيه المتوسِّطون فيما يذكِّرُهم، ويطَّلع منه المنتهون إلىٰ تحقيقِ مسائلِ العلم.

وهٰذا شرحُ (**الكتابُ الأوَّل**) من برنامج مهمَّات العلم من سنته السادس (١٤٣٦) وهو كتابُ «**تعظيمِ العلم**» لمعدِّ البرنامج صالح بن عبد الله بن حمدٍ العُصيمي.

قال الشَّيخ صالح بن عبد الله بن حمد العُصَيْمِيّ حفظه الله في كتابه:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحَمْدُ للهِ مَا عَظَّمَهُ مُعظِّمٌ، وَسَارَ إِلَيْهِ رَاغِبٌ مُتَعَلِّمٌ.

وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَـٰهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، شَهَادَةً نَبْرَأُ بِهَا مِنْ شَرَكِ الْإِشْرَاكِ، فَتُوجِبُ لَنَا النَّجَاةَ مِنْ نَارِ الْهَلَاكِ.

وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَرْسَلَهُ رَبُّهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ؛ لِيُظْهِرَهُ عَلَىٰ الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ، فَبَلَّغَ رِسَالَتَهُ وَأَدَّاهَا، وَأَسْلَمَ أَمَانَتَهُ وَأَبْدَاهَا.

انْتَصَبَتْ بِدَعْوَتِهِ أَظْهَرُ الْحُجَجِ، وَانْدَفَعَتْ بِبَيِّنَاتِهِ الشُّبُهَاتُ وَاللَّجَجُ.

فَوَرَّثَنَا الْمَحَجَّةَ الْبَيْضَاءَ، وَالسُّنَّةَ الغَرَّاءَ، لَا يَتِيهُ فِيهَا مُلْتَمِسٌ، وَلَا يُرَدُّ عَنْهَا مُقْتَبِسٌ، صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَعَلَىٰ آلِهِ وَصَحْبِهِ عَدَدَ مَنْ تَعَلَّمَ وَعَلَّمَ.

أَمَّا بَعْدُ..

فَلَمْ يَزَلِ الْعِلْمُ إِرْثًا جَلِيلًا تَتَعَاقَبُ عَلَيْهِ الْأَمَاثِلُ جِيلًا جِيلًا، لَيْسَ لِطُلَّابِ الْمَعَالِي هَمٌّ سِوَاهُ، وَلَا رَغْبَةَ لَهُمْ فِي مَطْلُوبٍ عَدَاهُ وَكَيْفَ لَا؟! وَبِهِ تُنَالُ سَعَادَةُ الدَّارَيْنِ وَطِيبُ الْعَيْشَيْنِ.

هُوَ شَرَفُ الْوُجُودِ، وَنُورُ الْأَغْوَارِ وَالنُّجُودِ، حِلْيَةُ الْأَكَابِرِ وَنُزْهَةُ النَّوَاظِرِ، مَنْ مَالَ إِلَيْهِ نَعِمَ، وَمَنْ جَالَ بِهِ غَنِمَ، وَمَنِ انْقَادَ لَهُ سَلِمَ.

لَوْ كَانَ سِلْعَةً تُبَاعُ لَبُذِلَتْ فِيهِ الْأَمْوَالُ الْعِظَامُ، أَوْ صُعِّدَ فِي السَّمَاءِ لَسَمَتْ إِلَيْهِ نُفُوسُ الْكِرَامِ.

هُوَ مِنَ الْمَتَاجِرِ أَرْبَحُهَا، وَفِي الْمَفَاخِرِ أَشْرَفُهَا، أَكْرَمُ الْمَآثِرِ مَآثِرُهُ، وَأَحْمَدُ الْمَوَارِدِ مَوَارِدُهُ، فَالسَّعِيدُ مَنْ حَضَّ نَفْسَهُ عَلَيْهِ، وَحَثَّ رِكَابَ رُوحِهِ إِلَيْهِ، وَالشَّقِيُّ مَنْ زَهِدَ فِيهِ أَوْ زَهَّدَ، وَأَبْعَدَ عَنْهُ أَوْ بَعَّدَ، أَنْفُهُ بِأَرِيجِ الْعِلْمِ مَزْكُومٌ، وَخَتْمُ الْقَفَىٰ (هَـٰذَا عَبْدٌ مَحْرُومٌ).

وَالْعِلْمُ يَدْخُلُ قَلْبَ كُلِّ مُوَفَّقٍ ... مِنْ غَيْرِ بَوَّابٍ وَلَا اسْتِئْذَانِ
وَيَرُدُّهُ الْمَحْرُومُ مِنْ خِذْلَانِهِ ... لَا تُشْقِنَا اللَّهُمَّ بِالْحِرْمَانِ

وَإِنَّ مِمَّا يَمْلَأُ النَّفْسَ سُرُورًا، وَيَشْرَحُ الصَّدْرَ وَيُمِدُّهُ نُورًا؛ إِقْبَالُ الْخَلْقِ عَلَىٰ مَقَاعِدِ التَّعْلِيمِ، وَتَلَمُّسُهُمْ صِرَاطَهُ الْمُسْتَقِيمَ.

وَأَدَلُّ دَلِيلٍ وَأَصْدَقُهُ: تَكَاثُرُ الدُّرُوسِ الْعِلْمِيَّةِ، وَتَوَالِي الدَّوَرَاتِ التَّعْلِيمِيَّةِ، حَلَاوَةً فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ، وَشَجًى فِي حُلُوقِ الْكَفَرَةِ وَالْمُنَافِقِينَ، فَالدُّرُوسُ مَعْقُودَةٌ، وَالرُّكَبُ مَعْكُوفَةٌ. وَالفَوَائِدُ شَارِقَةٌ، وَالنُّفُوسُ تَائِقَةٌ، الأَشْيَاخُ يَنْثِلُونَ دُرَرَ الْعِلْمِ، وَالتَّلَامِذَةُ يَنْظِمُونَ عِقْدَهُ.

وَإِنَّ مِنَ الْإِحْسَانِ إِلَىٰ هَـٰذِهِ الْجُمُوعِ الصَّاعِدَةِ، وَالأَجْيَالِ الوَاعِدَةِ، إِرْشَادَهَا إِلَىٰ سِرِّ حِيَازَةِ الْعِلْمِ الَّذِي يُظْفِرُهَا بِمَأْمُولِهَا، وَيُبَلِّغُهَا مَأْمَنَهَا، رَحْمَةً بِهِمْ مِنَ الضَّيَاعِ فِي صَحْرَاءِ الْآرَاءِ، وَظَلْمَاءِ الْأَهْوَاءِ.

وَإِعْمَالًا لِهَـٰذَا الْأَصْلِ؛ جُمِلَ الْحَدِيثُ ـ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ ـ عَنْ تَعْظِيمِ الْعِلْمِ؛ فَإِنَّ حَظَّ الْعَبْدِ مِنَ الْعِلْمِ مَوْقُوفٌ عَلَىٰ حَظِّ قَلْبِهِ مِنْ تَعْظِيمِهِ وَإِجْلَالِهِ، فَمَنِ امْتَلَأَ قَلْبُهُ بِتَعْظِيمِ الْعِلْمِ وَإِجْلَالِهِ صَلَحَ[1] أَنْ يَكُونَ مَحَلًّا لَهُ، وَبِقَدْرِ نُقْصَانِ هَيْبَةِ الْعِلْمِ فِي القَلْبِ يَنْقُصُ حَظُّ الْعَبْدِ مِنْهُ، حَتَّىٰ يَكُونَ مِنَ الْقُلُوبِ قَلْبٌ لَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ مِنَ الْعِلْمِ.

فَمَنْ عَظَّمَ الْعِلْمَ لَاحَتْ أَنْوَارُهُ عَلَيْهِ، وَوَفَدَتْ رُسُلُ فُنُونِهِ إِلَيْهِ، وَلَمْ يَكُنْ لِهِمَّتِهِ غَايَةٌ إِلَّا تَلَقِّيهِ، وَلَا لِنَفْسِهِ لَذَّةٌ إِلَّا الفِكْرُ فِيهِ، وَكَأَنَّ أَبَا مُحَمَّدٍ الدَّارِمِيَّ الحَافِظَ رَحِمَهُ اللهُ لَمَحَ هَـٰذَا الْمَعْنَىٰ، فَخَتَمَ كِتَابَ الْعِلْمِ مِن سُنَنِهِ الْمُسَمَّاةِ بِـ«الْمُسْنَدُ الْجَامِعُ» بِبَابٍ فِي إِعْظَامِ الْعِلْمِ.

وَأَعْوَنُ شَيْءٍ عَلَىٰ الْوُصُولِ إِلَىٰ إِعْظَامِ الْعِلْمِ وَإِجْلَالِهِ: مَعْرِفَةُ مَعَاقِدِ تَعْظِيمِهِ، وَهِيَ الْأُصُولُ الْجَامِعَةُ، الْمُحَقِّقَةُ لِعَظَمَةِ الْعِلْمِ فِي الْقَلْبِ، فَمَنْ أَخَذَ بِهَا كَانَ مُعَظِّمًا لِلْعِلْمِ مُجِلًّا لَهُ، وَمَنْ ضَيَّعَهَا فَلِنَفْسِهِ أَضَاعَ، وَلِهَوَاهُ أَطَاعَ، فَلَا يَلُومَنَّ ـ إِنْ فَتَرَ عَنْهُ ـ إِلَّا نَفْسَهُ، (يَدَاكَ أَوْكَتَا وَفُوكَ نَفَخَ)، وَمَنْ لَا يُكْرِمُ الْعِلْمَ لَا يُكْرِمُهُ الْعِلْمُ.

وَسَنَأْتِي بِالْقَوْلِ ـ بِإِذْنِ اللهِ ـ عَلَىٰ عِشْرِينَ مَعْقِدًا، يُعَظَّمُ بِهَا الْعِلْمُ، مِنْ غَيْرِ بَسْطٍ لِمَبَاحِثِهَا، فَإِنَّ الْمَقَامَ لَا يَحْتَمِلُ، وَالإِتْيَانُ عَلَىٰ غَايَةِ كُلِّ مَعْقِدٍ يَحْتَاجُ إِلَىٰ زَمَنٍ مَدِيدٍ، وَالْمُرَادُ هُنَا التَّبْصِرَةُ وَالتَّذْكِيرُ، وَقَلِيلٌ يَبْقَىٰ فَيَنْفَعُ خَيْرٌ مِنْ كَثِيرٍ يُلْقَىٰ فَيُرْفَعُ.

فَخُذْ مِنْ هَـٰذِهِ الْمَعَاقِدِ بِالنَّصِيبِ الْأَكْبَرِ، تَنَلِ الْحَظَّ الْأَوْفَرَ مِنْ رِيَاضِ الْفُنُونِ وَحَدَائِقِ الْعُلُومِ، وَإِيَّاكَ وَالْإِخْلَادَ إِلَىٰ مَقَالَةِ قَوْمٍ حُجِبَتْ قُلُوبُهُمْ، وَضَعُفَتْ نُفُوسُهُمْ، فَزَعَمُوا أَنَّ هَـٰذِهِ الْأَحْوَالَ غُلُوٌّ وَتَنَطُّعٌ، وَتَشَدُّدٌ غَيْرُ مُقْنِعٍ، فَقَدْ ضُرِبَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهَا بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ، وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ.

---

(١) قال الشيخ العصيمي، يجوز فيها الوجهان: الفتح والضَّم: صَلَحَ، صَلُحَ.

فَلَيْسَ مَعَ هَـٰؤُلَاءِ عَلَىٰ دَعْوَاهُمْ مِنْ أَدِلَّةِ الشَّرْعِ مَا يُصَدِّقُهَا، وَلَا مِنْ شَوَاهِدِ الْأَقْدَارِ مَا يُوَثِّقُهَا، وَإِنَّمَا هِيَ عُذْرُ الْبَلِيدِ، وَحُجَّةُ الْعَاجِزِ.

فَأَيْنَ الْغُلُوُّ وَالتَّنَطُّعُ مِنْ شَيْءٍ الْوَحْيُ شَاهِدُهُ، وَالرَّعِيلُ الْأَوَّلُ سَالِكُهُ؟! فَكُلُّ مَعْقِدٍ مِنْهَا ثَابِتٌ بِآيَةٍ مُحْكَمَةٍ، أَوْ سُنَّةٍ مُصَدَّقَةٍ، أَوْ آثَارٍ عَنْ خَيْرِ الْقُرُونِ الْـمَاضِيَةِ.

فَإِذَا وَثِقْتَ بِصِدْقِهَا وَعَقَلْتَ خُبْرَهَا وَخَبَرَهَا، فَلَا تَقْعُدْ هِمَّتُكَ بِخُطْبَةِ الْكَسَلِ وَالتَّوَانِي، تَتَسَلَّلُ إِلَيْهَا وَهِيَ تُجَلْجِلُ: (هَـٰذِهِ أَحْوَالُ مَنْ مَضَىٰ مِنْ سَلَفِ الْأُمَّةِ وَخَيْرِ الْوَرَىٰ، فَأَيْنَ الثَّرَىٰ مِنَ الثُّرَيَّا) بَلْ مَنْ سَمَتْ نَفْسُهُ إِلَىٰ مَقَامَاتِهِمْ أَدْرَكَهَا:

فَتَشَبَّهُوا إِنْ لَمْ تَكُونُوا مِثْلَهُمْ ... إِنَّ التَّشَبُّهَ بِالْكِرَامِ فَلَاحُ

فَأَشْهِدْ قَلْبَكَ هَـٰذِهِ الْـمَعَاقِدَ، وَتَدَبَّرْ مَنْقُولَهَا وَمَعْقُولَهَا وَاسْتَنْبِطْ مَنْطُوقَهَا وَمَفْهُومَهَا، فَالْـمَبَانِي خَزَائِنُ الْـمَعَانِي.

ابتدأ المصنف وفقه الله كتابه بالبسملة والحمدلة والشهادة لله بالوحدانية، ولمحمد ﷺ بالرسالة، وبالصلاة علىٰ النبي ﷺ وعلىٰ آله وصحبه.

وهؤلاء الأربع من آداب التَّصنيف اتِّفاقًا، وآكدها: البسملة؛ فإنها الواردة في السُّنة النبوية في المكاتبات والرسائل؛ فالتّصانيف تجري مجراها، فأكمل الأدب في استفتاح التَّصانيف: الابتداءُ بالبسملة.

وكان ممَّا ذكره المصنِّفُ وفقه الله في الحمدلة قوله: (وَسَارَ إِلَيْهِ رَاغِبٌ مُتَعَلِّمٌ) أي: سار إلىٰ الله راغبٌ متعلِّمٌ.

والسَّيرُ إلىٰ الله: هو لزومُ طريقه؛ وهو سلوكُ الصِّراط المستقيم. ذكره أبو الفرج ابنُ رجب في كتاب «المحجة في سير الدُّلجة».

فالمراد بالسير إلىٰ الله إذا ذُكر في كلام أهل العلم: **سُلوك الصِّراط المستقيم بالتزام دين الإسلام**.

والسُّلوك فيه يكون بتنقِيل العبد قلبه في منازل العبادة؛ فإنَّ السَّير إلىٰ الله يُقطَع بالقلْبِ والهِمَّة لا بالبدن، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ في كتاب «الفوائد»: **فاعلم أنَّ العبد إنَّما يقطع منازل السير إلىٰ الله بقلبه وهمَّته لا ببدنه**. انتهىٰ كلامه، وفي هٰذا المعنىٰ أنشد بعضُهم:

قطع المسافة بالقُلوب إليه لا ... بالسير فوق مقاعد الرُّكبان

وكان منها قوله في الشَّهادة لله بالوحدانية (شَهَادَةً نَبْرَأُ بِهَا مِنْ شَرَكِ الْإِشْرَاكِ)، والشَّرك: بفتح الراء

وسكونها أيضًا؛ فيقال: شَرَك، وشَرْك: وهو حِبَالَةُ الصَّائد التي ينصِبُها لِقَنْص صيْدِه.

ومن بدائع الكلم عند الأدباء قولهم: البدعة شرَك الإشراك. ذكره صاحب «نهاية الأرَب» وغيره؛ أي: أن البدعة هي من حبائل الشيطان التي ينصبها للناس، فإذا علَقُوا فيها أخَذهم بها ثُمّ أوقعهم في الشِّرْك.

وكان منها قوله في الشهادة لمحمد ﷺ بالرسالة: (وَانْدَفَعَتْ بِبَيِّنَاتِهِ الشُّبُهَاتُ وَاللَّجَجُ) واللَّجَج بفتح اللام أو بتحريك اللام مفتوحة: التَّمادي في الخصومة.

وأمَّا اللُّجج بضم اللام: فجمع لُجَّة، وهو الماء الذي لا يُرى طرفاه لاتِّساعه.

ثم ذكر المصنِّفُ فضل العلم بمقالٍ جامع، وكان ممَّا ذكره فيه قوله: (هُوَ شَرَفُ الْوُجُودِ، وَنُورُ الأَغْوَارِ وَالنُّجُودِ) أي: منوِّرُهما.

والأغوار: جمع غور، والنجود: جمع نجد.

والغور من الأرض: ما انخفض واطمأنَّ منها.

والنَّجد: اسمٌ لما ارتفع منها.

وغوْرُ جزيرة العرب: تِهامة، ونَجْدُها: كلُّ ما ارتَفع عنها إلىٰ العِراق.

وقال أيضًا في فضل العلم: (حِلْيَةُ الأَكَابِرِ) أي: زينتهم، **فالحِلية: اسم لما يُتزَيَّن به**، وهي نوعان:

أحدهما: الحلية الباطنة، ومحلها: القلب.

والآخر: الحلية الظاهرة، ومحلها: ما علا من البدن.

والعلم من الحلية الباطنة، وتُشاهَد آثاره علىٰ البدن.

وقال أيضًا في أثناء ذلك: (فَالدُّرُوسُ مَعْقُودَةٌ، وَالرُّكَبُ مَعْكُوفَةٌ) أي: محبوسة، **فالعكوف: الإقامة واللُّبث**، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ ۝٥٢﴾ [الأنبياء] أي: مقيمون عليها، لابثون عندها.

وليس عكف الرُّكب وصفًا لحركتها؛ بل توصف حركتها بقولهم: ثني الرُّكب، قال زياد بن واصل السلمي:

يا نافثًا شر الأحاديث الكذب ... يكفيك من إناخةٍ ثنيُ الرُّكب

وقال أيضًا: (الأَشْيَاخُ يَنْثِلُونَ دُرَرَ الْعِلْمِ) أي: يستخرجونها، ومنه قولهم: نَثَلَ الكنانة، وهي الوعاء

الذي تُحمل فيه سهام الرمي، إذا استُخرِج ما فيها من النبل والسهام قيل: نثَل الكنانة.

فالنثل هو: الاستخراج.

ثم ذكر المصنِّفُ أنَّ من الإحسان إلىٰ ملتمسي العلم إرشادهم إلىٰ سر حيازته، وهو تعظيم العلم وإجلاله؛ فنيل ملتمس العلمَ بغيتَه منه مرهونٌ بقدر تعظيمه له، فمَنْ عظَّم العلمَ حازَه ونالَه، ومَنْ لم يبال به ولا عرف قدره حُجب عنه.

وأعون شيءٍ للوصول إلىٰ تعظيم العلم هو معرفةُ معاقدِ تعظيمه، **والمراد بمعاقد تعظيم العلم: الأصولُ المحققة عظمةَ العلم في القلب.**

وفي هٰذه الرِّسالة ذِكْر عشرين معقدًا من معاقد تعظيم العلم علىٰ وجهٍ متوسِّط بين الإيجاز والإطناب، فالمراد هنا التبصرة والتذكير، (وَقَلِيلٌ يَبْقَىٰ فَيَنْفَعُ خَيْرٌ مِنْ كَثِيرٍ يُلْقَىٰ فَيُرْفَعُ.) فإن النفوس تشرف بقدر ما تدرك، ولا يُحمد العلم بمجرَّد البسط والاتساع؛ بل يُحمَد باكتمال المدارك وحصول الانتفاع.

ومقصود الشريعة: نفع الخلق بالحق، وتشقيق المباني ربما حال دون جياد المعاني، فإنَّ ردَّ ما يُنتفع به إلىٰ كلام جامع أوْقع في النفوس وأكثر نفعًا من بسط القول فيها.

والسَّير علىٰ الأصول المذكورة في هذه الرسالة جادَّةٌ شرعية، وطريقة سُنيِّة سَنِيَّة، وهجر الناس لها صيّرها عندهم غُلوًّا وتنطُّعًا؛ فتجد أحدهم إذا ذُكِّر بشيء من هذه المعاقد المحقِّقَة عظمة العلم في القلب تلكأ دونه، ورآه علىٰ خلاف ما عليه الناس فردَّه بمجرَّد الجهل به وعدم قيام الخلق بأدائه، وهٰذا جهل وغرور، فإنَّ مَنْ جهل شيئًا تعلَّمه، فإذا تعلَّمه ووجد دليله مترشِّحًا من الكتاب والسُّنة والعملُ جارٍ عليه امتثله، وإنْ كان الناس علىٰ هجره، فإنَّ الخلق تغلب عليهم من الأحوال بتغيُّر الأيام والدُّول ما يخرجهم عن امتثال خطاب الشريعة ولزوم جادَّةِ أهلها.

وإذا قايست المذكور في هذه المعاقد بما نحن عليه اليوم من تعظيم العلم وجدت أنَّ حالَنا مما يُؤسَف عليها ويُشتكىٰ إلىٰ الله منها.

فلا خُروج من هذه الحال التي أوهنت القُلوب وأضعفت أخذها العلم إلَّا بامتثال ما جاء في القرآن والسُّنة، وكان عليه الصدر الأول والرعيل الأمثل من تعظيم العلم وإجلاله عسىٰ أن يدرك ملتمسُ العلم

بغيته منه.

وإذا تغرغر القلب بحلاوة هذه المعاقد وامتثَلَها المرء في نفسه صلُح قلبُه أن يكون محلًّا للعلم، فإن العلم مِنّة إلٰهيّة وعطية ربانية، والله ﷻ لا يجعل ذخائر الخير من العلم والفهم في قلوب ٍ لا تصلح للعلم ولا تعظّمه.

وليس المرادُ بالعلم الذي يُحجَب عنها إدراك المسائل، فإنّ إدراك المسائل يوجد عند أقوامٍ يصبحون ويمسون علىٰ مخالفة الشريعة، وهم مباعدون تعظيم العلم في أبوابٍ كثيرة منه؛ ولكن المرادَ بالعلم الذي يُنال بتعظيم العلم: هو العلم النافع الذي يكون خيرًا للعبد في الدُّنيا والآخرة.

وأمّا مجرّد العلم بإدراك المسائل فإنه يكون وبالًا علىٰ العبد في الدنيا والآخرة، وتعظُم عليه الحجّة في الدنيا ويؤاخَذ بالعُقوبة في الآخرة.

فمَنْ أراد علمًا نافعًا يُنير له دربه في الدنيا، ويؤنس له وحشته في قبره وينال به في الآخرة الدَّرجات الرفيعة والمقامات العالية كان حقيقًا به أن يمتثل ما ذُكِر في تعظيمِ العلم من المعاقد والأصول الجامعة ليُدرك هذه المراتب العالية، وإنْ خلت نفسُه من تلك الأصول المحققة عظَمَة العلم في القلب فإنّه لا ينفعه شيء من هذه القوىٰ الظاهرة كجودة الفهم وحُسن الحِفظ وقوّته، فإنَّ القوة الظاهرة ربَّما حجبت العبد عن المرادات الكبرىٰ في الانتفاع بالعلم.

فسبيل نيل الخير بالعلم في الدنيا والآخرة: أن تعظِّم العلم.

فليستشرف قلبك إلىٰ معرفة هذه المعاقد، ثُم جاهد نفسَك في امتثالها، فإنَّ إقراء هذه الرسالة بين يدي البرنامج المقصود منه حمل النفوس كافة علىٰ امتثال تعظيم العلم لتنال بُغيتها منه.

الْمَعْقِدُ الأَوَّلُ
تَطْهِيرُ وِعَاءِ الْعِلْمِ

وَهُوَ الْقَلْبُ؛ فَإِنَّ لِكُلِّ مَطْلُوبٍ وِعَاءً، وَإِنَّ وِعَاءَ الْعِلْمِ الْقَلْبُ، وَوَسَخُ الْوِعَاءِ يُعَكِّرُهُ وَيُغَيِّرُ مَا فِيهِ، وَبِحَسَبِ طَهَارَةِ الْقَلْبِ يَدْخُلُهُ الْعِلْمُ، وَإِذَا ازْدَادَتْ طَهَارَتُهُ ازْدَادَتْ قَابِلِيَّتُهُ لِلْعِلْمِ، وَمَثَلُ الْعِلْمِ فِي الْقَلْبِ كَنُورِ الْمِصْبَاحِ، إِنْ صَفَا زُجَاجُهُ شَعَّتْ أَنْوَارُهُ، وَإِنْ لَطَّخَتْهُ الْأَوْسَاخُ كَسَفَتْ أَنْوَارُهُ.

فَمَنْ أَرَادَ حِيَازَةَ الْعِلْمِ فَلْيُزَيِّنْ بَاطِنَهُ وَيُطَهِّرْ قَلْبَهُ مِنْ نَجَاسَتِهِ، فَالْعِلْمُ جَوْهَرٌ لَطِيفٌ لَا يَصْلُحُ إِلَّا لِلْقَلْبِ النَّظِيفِ.

وَطَهَارَةُ الْقَلْبِ تَرْجِعُ إِلَى أَصْلَيْنِ عَظِيمَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: طَهَارَتُهُ مِنْ نَجَاسَةِ الشُّبُهَاتِ.

وَالْآخَرُ: طَهَارَتُهُ مِنْ نَجَاسَةِ الشَّهَوَاتِ.

وَلِمَا لِطَهَارَةِ الْقَلْبِ مِنْ شَأْنٍ عَظِيمٍ، أُمِرَ بِهَا النَّبِيُّ ﷺ فِي أَوَّلِ مَا أُمِرَ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْمُدَّثِّرِ: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾﴾ فِي قَوْلِ مَنْ يُفَسِّرُ الثِّيَابَ بِالْبَاطِنِ، وَهُوَ قَوْلٌ حَسَنٌ، لَهُ مَأْخَذٌ صَحِيحٌ.

وَإِذَا كُنْتَ تَسْتَحْيِي مِنْ نَظَرِ مَخْلُوقٍ مِثْلِكَ إِلَى وَسَخِ ثَوْبِكَ فَاسْتَحْيِي مِنْ نَظَرِ اللهِ إِلَى قَلْبِكَ وَفِيهِ إِحَنٌ وَبَلَايَا، وَذُنُوبٌ وَخَطَايَا.

قَالَ مُسْلِمُ بْنُ الْحَجَّاجِ[١]: حَدَّثَنَا عَمْرٌو النَّاقِدُ، حَدَّثَنَا كَثِيرُ بْنُ هِشَامٍ، حَدَّثَنَا جَعْفَرُ بْنُ بُرْقَانَ، عَنْ يَزِيدَ الْأَصَمِّ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ».

وَاحْذَرْ كَمَائِنَ نَفْسِكَ اللَّاتِي مَتَى ... خَرَجَتْ عَلَيْكَ كُسِرْتَ كَسْرَ مُهَانِ

مَنْ طَهَّرَ قَلْبَهُ فِيهِ الْعِلْمُ حَلَّ، وَمَنْ لَمْ يَرْفَعْ مِنْهُ نَجَاسَتَهُ وَدَّعَهُ الْعِلْمُ وَارْتَحَلَ.

وَإِذَا تَصَفَّحْتَ أَحْوَالَ طَائِفَةٍ مِنْ طُلَّابِ الْعِلْمِ فِي هَذَا الْمَعْقِدِ رَأَيْتَ خَلَلًا بَيِّنًا، فَأَيْنَ تَعْظِيمُ الْعِلْمِ مِنِ امْرِئٍ تَغْدُو الشَّهَوَاتُ وَالشُّبُهَاتُ فِي قَلْبِهِ وَتَرُوحُ؟!

---

(١) في (٤٥) ك: البر والصلة والآداب، (١٠) ب: تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله، رقم (٢٥٦٤) من حديث أبي هريرة.

تَدْعُوهُ صُورَةٌ مُحَرَّمَةٌ وَتَسْتَهْوِيهِ مَقَالَةٌ مُجْرِمَةٌ، حَشْوُهُ الْمُنْكَرَاتُ، وَالتَّلَذُّذُ بِالمُحَرَّمَاتِ، فِيهِ غِلٌّ وَفَسَادٌ، وَحَسَدٌ وَعِنَادٌ، وَنِفَاقٌ وَشِقَاقٌ، أَنَّى لِهَؤُلَاءِ وَلِلْعِلْمِ؟! مَا هُمْ مِنْهُ، وَلَا هُوَ إِلَيْهِمْ.

قَالَ سَهْلُ بْنُ عَبْدِ اللهِ رَحِمَهُ اللهُ: حَرَامٌ عَلَى قَلْبٍ أَنْ يَدْخُلَهُ النُّورُ وَفِيهِ شَيْءٌ مِمَّا يَكْرَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ.

ذكر المصنف وفقه الله (**الْمَعْقِدَ الأَوَّلَ**) من معاقد تعظيم العلم وهو: (**تَطْهِيرُ وِعَاءِ الْعِلْمِ**)، والمراد به: المحل الذي يُحفَظ فيه العلم، ثم أبان عنه بقوله: (وَهُوَ الْقَلْبُ؛ فَإِنَّ لِكُلِّ مَطْلُوبٍ وِعَاءً، وَإِنَّ وِعَاءَ الْعِلْمِ الْقَلْبُ)

ثم ذكر أن حال القلب مع العلم يكون علىٰ طوْرين:

أحدهما: أن يكون القلب طاهرًا؛ فينتفع بالعلم ويدخلُه، وتزداد قابليته له.

والآخر: أن يكون القلب متلطِّخًا بالأوساخ من النَّجاسات القلبية، فيحصل له من نقص دخول العلم واستقراره فيه بقدر ما فيه من النَّجاسة المُذهبة كمال النُّور.

وشبهه بنور المصباح فقال: (وَمَثَلُ الْعِلْمِ فِي الْقَلْبِ كَنُورِ الْمِصْبَاحِ، إِنْ صَفَا زُجَاجُهُ شَعَّتْ أَنْوَارُهُ، وَإِنْ لَطَّخَتْهُ الْأَوْسَاخُ كَسَفَتْ أَنْوَارُهُ.) أي: ذهبت، **فالكسوف**: هو ذهاب النور، وهو عند جمهور أهل اللغة: ذهاب نور الشمس كلِّه أو بعضه.

ثم ذكر (مَنْ أَرَادَ حِيَازَةَ الْعِلْمِ فَلْيُزَيِّنْ بَاطِنَهُ وَيُطَهِّرْ قَلْبَهُ مِنْ نَجَاسَتِهِ) ليكون الوعاء صالحًا لحمل العلم، وقال في بيان ذلك: (فَالْعِلْمُ جَوْهَرٌ لَطِيفٌ لَا يَصْلُحُ إِلَّا لِلْقَلْبِ النَّظِيفِ.) والمراد به: العلم النافع الذي يكون ذخيرة للعبد في الدنيا والآخرة، فإنَّه لا يلامس القلوب إلَّا إذا كانت طاهرة.

ثم ذكر أن (طَهَارَةَ الْقَلْبِ تَرْجِعُ إِلَى أَصْلَيْنِ عَظِيمَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: طَهَارَتُهُ مِنْ نَجَاسَةِ الشُّبُهَاتِ.

وَالْآخَرُ: طَهَارَتُهُ مِنْ نَجَاسَةِ الشَّهَوَاتِ.)

فإنَّ هاتين النجاستين تعتوران القلب، ولا سبيل إلا انتفاع العبد بقلبه إلا بنفي هذه النجاسات عنه.

ثم ذكر (مَا لِطَهَارَةِ الْقَلْبِ مِنْ شَأْنٍ عَظِيمٍ) حتىٰ بُدِر النبي ﷺ بالأمر بها- في قوله تعالىٰ- في أوائل ما نُزل عليه: (﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤﴾[المدثر] فِي قَوْلِ مَنْ يُفَسِّرُ الثِّيَابَ بِالبَاطِنِ وَهُوَ قَوْلٌ حَسَنٌ، لَهُ مَأْخَذٌ صَحِيحٌ.)

وقد ذكر أبو جعفر بن جرير الطبري في «تفسيره» أن هذا القول هو قول أكثر السلف أنهم يرون أن المراد بقوله تعالىٰ: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤﴾[المدثر] أي: طهِّر أعمالك من كلِّ نجاسة، والسياق يقوِّيه، وهذا معنىٰ قول المصنف: (لَهُ مَأْخَذٌ صَحِيحٌ) وهو رعاية سياق الآيات، فإنَّ السِّياق المتتابع للآيات يُبين عن تقديم الأمر بالإيمان بالله وتوحيده في قوله تعالىٰ: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣﴾[المدثر].

ثم ذكر هذه الآية ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤﴾[المدثر] ثم أتبعها بقوله تعالىٰ: ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ۝٥﴾[المدثر] أمرًا بالكفر بالطاغوت واجتناب الشرك، فبين الآيتين يكون المناسب للسِّياق حمل قوله تعالىٰ: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤﴾[المدثر] علىٰ تطهير القلب من النَّجاسات التي تعلوه.

وأصول نجاسات القلب ثلاثٌ:

أولها: نجاسة الشِّرْك.

وثانيها: نجاسة البدعة.

وثالثها: نجاسة المعصية.

ذكره ابن القيم في كتاب «الفوائد».

ثم قال: (وَإِذَا كُنْتَ تَسْتَحْيِي مِنْ نَظَرِ مَخْلُوقٍ مِثْلِكَ إِلَىٰ وَسَخِ ثَوْبِكَ فَاسْتَحْيِي مِنْ نَظَرِ اللهِ إِلَىٰ قَلْبِكَ وَفِيهِ إِحَنٌ وَبَلَايَا، وَذُنُوبٌ وَخَطَايَا.).

ثم ذكر حديث (أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللهَ لَا يَنْظُرُ إِلَىٰ صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ»)، وفيه بيان محل نظر الله من العبد؛ فإن الله ﷻ ينظر من عبده إلىٰ شيئين:

أحدهما: قلبه.

والآخر: عمله.

فالتقوىٰ مؤلفة من قلب طاهر وعمل صالح ظاهر، وبحسب كمال حال العبد في قلبه وعمله يكون كمال حاله عند ربه ﷻ.

ثم ذكر قول ابن القيم في نونيته :

وَاحْذَرْ كَمَائِنَ نَفْسِكَ اللَّاتِي مَتَىٰ ... خَرَجَتْ عَلَيْكَ كُسِرْتَ كَسْرَ مُهَانِ

أي: احذر دفائن نفسك المخبوءة فيها، فإنها متىٰ خرجت عليك – أي: انبعثت ظاهرة عليك في

أحوالك- لحِقك الذل والمهانة.

ثم ذكر من أحوال طائفة من طلاب العلم ما يُباين هذا المعقد ويناقضه ممَنْ تغدو قلوبُهم وتروح في الشهوات والشبهات.

وختم بقول سهل بن عبد الله التُّسْتَرِي رَحِمَهُ اللَّهُ: (حَرَامٌ عَلَىٰ قَلْبٍ أَنْ يَدْخُلَهُ النُّورُ وَفِيهِ شَيْءٌ مِمَّا يَكْرَهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ.)؛ أي: يمتنع علىٰ القلب أن يدخله النور النافع من كلام الله وكلام رسوله ﷺ وفيه شيء مما يكره الله عَزَّوَجَلَّ، ويحصل له من حجب النور عنه بقدر ما يكون في قلبه من النجاسة.

وأصله في التنزيل قول الله تعالىٰ: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾[الأعراف:١٤٦].

قال سفيان بن عيينة في تفسيرها: أَحْرِمُهُم فهم القرآن.

وقال محمد بن يوسف الفريابي: أمنع قلوبهم من التدبر في أمري- أي: في القرآن.

وموجب ما هم فيه من منع قلوبهم من الانتفاع بالقرآن ما هم عليه من الاستكبار عن الحق، فإنهم لما استكبروا عن الحق أذلهم الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بالجهل. ذكره ابن كثير في «تفسيره».

وإذا صُرف قلب العبد عن الانتفاع بكلام الله وكلام رسوله ﷺ لم ينفعه شيء من الْقُدَرِ الظاهرة من الحفظ والفهم.

والمقصود بالصرف عن الآيات: منع الانتفاع بها، فربما كان حافظًا لآيات القرآن الكريم، أو السُّنة النبوية؛ لكنه لا ينتفع بها لحجب قلبه عن ذلك بما فيه من نجاسة تمنع دخول النُّور كله أو بعضه إليه.

قال ابن الحاج في كتاب «المدخل»: ومعلومٌ أن بعض المتكبرين يحفظ القرآن، ولكنهم مُنعوا فائدته في الفهم والعمل، وذلك هو المطلوب، فينبغي أن يعتني طالب العلم خاصّة، وعبد الله عامة بنفي النجاسات عن قلبه ليهنأ قلبُه منتفعًا بما يسمع من كلام الله وكلام رسوله ﷺ.

والخَلْق إذا تباينوا في قُدَرِهِم في أخذ العلم حفظًا وفهمًا ودرسًا وملازمةً للشيوخ فإنهم يتفاوتون تفاوتًا عظيمًا فيما هو أجلُّ من ذلك وهو تهيئة قلوبهم وصلاحيتها للانتفاع بالعلم بحسب ما يكون لأحدهم من طهارة قلبه، فالمطهَّر قلبُه تطهيرًا تامًا ينتفع في العلم انتفاعًا عظيمًا، وإن كان غيره أحفظ منه وأسرع فهمًا إلىٰ المقصود؛ فليس مَرَدُّ العلم إلىٰ القُوىٰ الظاهرة فحسب، بل مردُّه الأعظم إلىٰ ما يكون في الباطن من طهارة القلب والإقبال علىٰ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

الْمَعْقِدُ الثَّانِي
إِخْلاصُ النِّيَّةِ فِيهِ

فَإِنَّ إِخْلَاصَ الْأَعْمَالِ أَسَاسُ قَبُولِهَا وَسُلَّمُ وُصُولِهَا، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البَيِّنَة:٥].

وَقَالَ البُخَارِيُّ فِي «الجَامِعِ المُسْنَدِ الصَّحِيحِ» ، وَمُسْلِمٌ فِي «الْمُسْنَدِ الصَّحِيحِ» وَاللَّفْظُ لِلْبُخَارِيِّ: حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْلَمَةَ، قَالَ: أَخْبَرَنَا مَالِكٌ، عَنْ يَحْيَىٰ بْنِ سَعِيدٍ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ، عَنْ عَلْقَمَةَ، عَنْ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّةِ وَلِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَىٰ».

وَمَا سَبَقَ مَنْ سَبَقَ وَلَا وَصَلَ مَنْ وَصَلَ مِنَ السَّلَفِ الصَّالِحِينَ إِلَّا بِالإِخْلَاصِ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ.

قَالَ أَبُو بَكْرٍ المَرُّوذِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: سَمِعْتُ رَجُلًا يَقُولُ لِأَبِي عَبْدِ اللهِ -يَعْنِي أَحْمَدَ ابْنَ حَنْبَلَ- وَذَكَرَ لَهُ الصِّدْقَ وَالْإِخْلَاصَ فَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللهِ: بِهَذَا ارْتَفَعَ الْقَوْمُ.

وَإِنَّمَا يَنَالُ الْمَرْءُ الْعِلْمَ عَلَىٰ قَدْرِ إِخْلَاصِه.

وَالْإِخْلَاصُ فِي الْعِلْمِ يَقُومُ عَلَىٰ أَرْبَعَةِ أُصُولٍ بِهَا تَتَحَقَّقُ نِيَّةُ الْعِلْمِ لِلْمُتَعَلِّمِ إِذَا قَصَدَهَا:

الْأَوَّلُ: رَفْعُ الْجَهْلِ عَنْ نَفْسِهِ؛ بِتَعْرِيفِهَا مَا عَلَيْهَا مِنَ الْعُبُودِيَّاتِ وَإِيقَافِهَا عَلَىٰ مَقَاصِدِ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ.

الثَّانِي: رَفْعُ الْجَهْلِ عَنِ الْخَلْقِ بِتَعْلِيمِهِم وَإِرْشَادِهِم لِمَا فِيهِ صَلَاحُ دُنْيَاهُم وَآخِرَتِهِم.

الثَّالِثُ: إِحْيَاءُ الْعِلْمِ ، وَحِفْظُهُ مِنَ الضَّيَاعِ.

الرَّابِعُ: الْعَمَلُ بِالْعِلْمِ.

فَالْعِلْمُ شَجَرَةٌ، وَالْعَمَلُ ثَمَرَةٌ، وَإِنَّمَا يُرَادُ الْعِلْمُ لِلْعَمَلِ.

وَلَقَدْ كَانَ السَّلَفُ رَحِمَهُمُ اللهُ يَخَافُونَ فَوَاتَ الْإِخْلَاصِ فِي طَلَبِهِمُ الْعِلْمَ فَيَتَوَرَّعُونَ عَنِ ادِّعَائِهِ، لَا أَنَّهُم لَم يُحَقِّقُوه فِي قُلُوبِهِمْ.

فَهِشَامُ الدَّسْتَوَائِي رَحِمَهُ اللهُ يَقُولُ: (وَاللهِ مَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَقُولَ: إِنِّي ذَهَبْتُ يَوْمًا أَطْلُبُ الْحَدِيثَ أُرِيدُ بِهِ وَجْهَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ).

وَسُئِلَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: هَلْ طَلَبْتَ الْعِلْمَ للهِ؟ فَقَالَ: (للهِ! عَزِيزٌ، وَلَكِنَّه شَيْءٌ حُبِّبَ إِلَيَّ فَطَلَبْتُهُ).

وَمَنْ ضَيَّعَ الْإِخْلَاصَ فَاتَهُ عِلْمٌ كَثِيرٌ وَخَيرٌ وَفِيرٌ.

وَيَنْبَغِي لِقَاصِدِ السَّلَامَة أن يَتَفَقَّدَ هٰذَا الْأَصْلَ -وَهُو الْإِخْلَاص- فِي أُمُورِه كُلِّهَا دَقِيقِهَا وَجَلِيلِهَا سِرِّهَا وَعَلَنِهَا.

وَيَحْمِلُ عَلَىٰ هٰذَا التَّفَقُّدِ شِدَّةُ مُعَالَجَةِ النِّيَّةِ.

قَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: (مَا عَالَجْتُ شَيْئًا أَشَدَّ عَلَيَّ مِن نِيَّتِي لِأَنَّهَا تَتَقَلَّبُ عَلَيَّ).

بَلْ قَالَ سُلَيْمَانُ الْهَاشِمِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: (رُبَّمَا أُحَدِّثُ بِحَدِيثٍ وَاحِدٍ وَلِي نِيَّةٌ فَإِذَا أَتَيْتُ عَلَىٰ بَعْضِهِ تَغَيَّرَتْ نِيَّتِي فَإِذَا الْحَدِيثُ الْوَاحِدُ يَحْتَاج إِلَىٰ نِيَّاتٍ).

ذكر المصنِّفُ وفقه الله (**الْمَعْقِد الثَّانِي**) من معاقد أصول تعظيم العلم وهو: (**إِخْلَاصُ النِّيَّةِ فِيهِ**).

وحقيقة **الإخلاص** شرعًا: **تصفية القلب من إرادة غير الله**.

فمدار الإخلاص علىٰ أمرين:

أحدهما: تصفية القلب، وهو تخليته من كلِّ شائبة تكدِّره.

والآخر: تعلُّق تلك التَّصفية بإرادة الله فلا يزاحمها بشيء كطلب محمدة أو ثناءٍ أو حظٍّ من الدنيا.

وأشرتُ إلىٰ حقيقة الإخلاص نظمًا بقولي:

إِخْلَاصُنَا للهِ صَفُّ الْقَلْبِ مِنْ   إِرَادَةٍ سِوَاهُ فَاحْذَرْ يَا فَطِنْ

وعلل المصنف طلب الإخلاص في أخذ العلم بقوله: (فَإِنَّ إِخْلَاصَ الأَعْمَالِ أَسَاسُ قَبُولِهَا وَسُلَّمُ وُصُولِهَا)؛ فالسبيل الأعظم لقبول الأعمال ووصولها إلىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ متقبلةً وقوعها علىٰ حال الإخلاص.

ثم قال: (وَمَا سَبَقَ مَنْ سَبَقَ وَلَا وَصَلَ مَنْ وَصَلَ مِنَ السَّلَفِ الصَّالِحِينَ إِلَّا بِالإِخْلَاصِ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ)، وذكر من شواهد أحوالهم ما يدلُّ علىٰ ما كانوا عليه.

ثم قال: (وَإِنَّمَا يَنَالُ الْمَرْءُ الْعِلْمَ عَلَىٰ قَدْرِ إِخْلَاصِه) فإذا عظُم إخلاص العبد عظُم أخذه للعلم، قال ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: «إنما يحفظ المرء علىٰ قدر نيته» رواه ابن عساكر وغيره.

ثم ذكر المصنِّف أن (الْإِخْلَاص فِي الْعِلْمِ يَقُومُ عَلَىٰ أَرْبَعَةِ أُصُولٍ بِهَا تَتَحَقَّقُ نِيَّةُ الْعِلْمِ لِلْمُتَعَلِّمِ):

أولها: أن يقصد بالتعلم (رَفْعَ الْجَهْلِ عَنْ نَفْسِهِ)، فهو يقبل علىٰ العلم ليرفع الجهالة بدينه عن نفسه، فيُعرِّف نفسه ما عليها من العبوديات ويوقفها علىٰ مقاصد الأمر والنهي الواردة في الشرع.

وثانيها: (رَفْعُ الْجَهْل عَنِ الْخَلْقِ)؛ بأن يسعىٰ في تعليمهم وإرشادهم وهدايتهم إلىٰ الصراط المستقيم.

وثالثها: (إِحْيَاءُ الْعِلْمِ ، وَحِفْظُهُ مِنَ الضَّيَاعِ)؛ فيسعىٰ في بثه رغبةً في حفظه لئلا يُنسىٰ ويُطوىٰ من الأمة.

ورابعها: (الْعَمَلُ بِالْعِلْمِ)؛ فينوي عند أخذه العلم أن يتحرىٰ العمل به.

فمَنْ أراد أن يحقق نية العلم الخالصة في قلبه فليمتثل هذه الأصول الأربعة فيُشهدها قلبَه، وجمعتُ هذه الأصول الأربعة في بيتين فقلت:

وَنِيَّةٌ لِلْعِلْمِ رَفْعُ الْجَهْلِ عَمْ ... عَنْ نَفْسِهِ فَغَيْرِهِ مِنَ النَّسَمْ

وَبَعْدَهُ التَّحْصِينُ لِلْعُلُومِ مِنْ ... ضَيَاعِهَا وَعَمَلٌ بِهِ زُكِنْ

وقوله: النَّسَمْ: أي الخلق.

وقوله: زُكِنْ: أي ثبت.

ثم ذكر ما كان عليه السلف من تخوفهم فوت الإخلاص في أعمالهم، لا أنهم لم يحققوه؛ فإنهم كانوا يجتهدون في تحرِّيه، ثم يعظم خوف أحدهم علىٰ نفسه ألا يكون مخلصًا في عمله، وذكر من آثارهم ما يدل علىٰ أحوالهم.

ثم قال: (وَمَنْ ضَيَّعَ الْإِخْلاصَ فَاتَهُ عِلْمٌ كَثِيرٌ وَخَيْرٌ وَفِيرٌ.

وَيَنْبَغِي لِقَاصِدِ السَّلامَة أَنْ يَتَفَقَّدَ هٰذَا الْأَصْلَ -وَهُو الْإِخْلَاص- فِي أُمُوره كُلِّهَا دَقِيقِهَا وَجَلِيلِهَا سِرِّهَا وَعَلَنِهَا.).

ثم ذكر الداعي إلىٰ طلب تفقد الإخلاص في الأعمال فقال: (وَيَحْمِلُ عَلَى هٰذَا التَّفَقُّدِ شِدَّةُ مُعَالَجَةِ النِّيَّةِ.) أي: عِظَم ما يجد العب من الشِّدة في إصلاح نيته وتصفيتها بأن تكون خالصة لله عَزَّوَجَلَّ.

وذكر قول (سُفْيَان الثَّوْرِيّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (مَا عَالَجْتُ)) أي: ما كابدت في المشقة، (شَيْئًا أَشَدَّ عَلَيَّ مِن نِيَّتِي لِأَنَّهَا تَتَقَلَّبُ عَلَيَّ) فالنية من أحوالها أنها تتقلب- أي: تتغير من حال إلىٰ حال.

ومنشأ تقلُّب النِّيّة أن محلها القلب وهو عُرضة للتقلّب والتغيّر.

قال الأول:

قَدْ سُمِّيَ الْقَلْبُ قَلْبًا مِنْ تَقَلُّبِهِ فَاحْذَرْ عَلَى الْقَلْبِ مِنْ قَلْبٍ وَتَحْوِيلِ

فإذا كان محلّ النية من العبد وهو القلب يتقلب فإن النية الكائنة في هذا المحل تتقلّب معه.

ثم ذكر قول سلمان الهاشمي: (رُبَّمَا أُحَدِّثُ بِحَدِيثٍ وَاحِدٍ وَلِي نِيَّةٌ) أي: مقصد حسن، (فَإِذَا أَتَيْتُ عَلَىٰ بَعْضِهِ تَغَيَّرَتْ نِيَّتِي) أي: تحولت نيتي، (فَإِذَا الْحَدِيثُ الْوَاحِدُ يَحْتَاج إِلَىٰ نِيَّاتٍ) أي: يحتاج العبد فيه إلىٰ رد نيته إلىٰ قصدها الحسن الذي كانت عليه بعد عُروض هذا التغيّر لها.

وهذا الأمر الذي أرشد إليه سليمان الهاشمي هو تصحيح النية، والمراد به: ردُّ النيّة إلىٰ المأمور به إذا عَرَض لها ما يغيِّرها أو يفسدها.

فقولنا: (إلىٰ المأمور به) أي: إلىٰ وَفق الأمر الشرعي.

وقولنا: (إذا عرض لها ما يغيرها) أي: يحوِّلها من قصد القُربة إلىٰ الإباحة المجرَّدة.

وقولنا: (أو يفسدها) أي: ما يخرجها من الصَّلاح إلىٰ ضده، وهي الإرادة المحرَّمة.

فإن العبد تكون له في الشيء نية حسنة، فإذا طال معه عرَضَ له من أحوال النية ما يقلِبها عن وجهها الذي أراد، فتارةً تخرج من إرادة القربة والازدلاف إلىٰ الله ﷻ إلىٰ قصدٍ مباح، وتارةً تخرج من القصد الحسن إلىٰ قصد سيِّئ؛ كمَنْ يخرج إلىٰ هذه المجالس يريد الانتفاع بما يكون فيها من العلم والخير، فإذا طالت عليه أيامها جعل مجرّد وصوله إلىٰ هذه المجالس مقامًا للنُّزهة، وتغيير نفسه عن الحال الذي كانت عليها في بلده، فهو نَقَلَ نفسه من بلد إلىٰ بلد ليروح عن نفسه بالسياحة في الأرض فأخرجها إلىٰ قصدٍ مباح.

وربما عرض للعبد بعد قُدومه هذه المجالس رجاء الانتفاع بالعلم ما يُفسد نيّته؛ كأن يتزين له حال المعلم الذي يلقي هذا العلم إليه، فتصبُو نفسه إلىٰ أن ينال من العلم ما يُرفَع به فوق رؤوس الناس بالجلوس علىٰ الكراسي، فتَفسد نيَّته بهذا الغرض السيئ؛ إذ جعل مُدْرَكَهُ من العلم الذي يبتغيه أن يُرفع فوق رؤوس النَّاس، وما الخير إذا رُفع العبد علىٰ الكراسي فوق الخلق؟.. فإذا وَفَد علىٰ الله ﷻ كان علىٰ ضد تلك الحال من الذِّلّة والمهانة، أعاذنا الله وإياكم من عاقبة السوء.

والمقصود: أن العبد يجتهد في تصحيح نيّته، فإذا عرضت له هذه الأحوال ردَّ نيَّته إلىٰ ما كانت عليه من قصد حسن، وهذا التَّفقُّد هو الذي عظُم عند السلف وشق عليهم؛ لأن النيات جُعلت في القلب،

والقلب متقلب، فتكون لأحدهم نية ثم تتحول سريعًا كالذي ذكر سليمان الهاشمي من أن المرء يبدأ فيحدِّث بحديث عن النبي ﷺ مسندًا له ليُكتب عنه من الرواة، فإذا شرع فيه عرض له في أثناء حديثه غرض أخرج نيته عن قصدها الحسن فيحتاج إلىٰ ردِّ نيَّته إلىٰ ما كانت عليه من قصد حسن.

الْمَعْقِدُ الثَّالِثُ

جَمْعُ هِمَّةِ النَّفْسِ عَلَيْهِ

فَإِنَّ شَعَثَ النَّفْسِ إِذَا جُمِعَ عَلَىٰ الْعِلْمِ الْتَأَمَ وَاجْتَمَعَ، وَإِذَا شُغِلَ بِهِ وَبِغَيْرِهِ ازْدَادَ تَفَرُّقًا وَشَتَاتًا، وَإِنَّمَا تُجْمَعُ الْهِمَّةُ عَلَىٰ الْمَطْلُوبِ بِتَفَقُّدِ ثَلَاثَةِ أُمُورٍ:

أَوَّلُهَا: الْحِرْصُ عَلَىٰ مَا يَنْفَعُ. فَمَتَىٰ وُفِّقَ الْعَبْدُ عَلَىٰ إِلَىٰ مَا يَنْفَعُهُ حَرَصَ عَلَيْهِ.

ثَانِيهَا: الاسْتِعَانَةُ بِاللهِ عَزَّوَجَلَّ فِي تَحْصِيلِهِ:

إِذَا لَمْ يَكُنْ عَوْنٌ مِنَ اللهِ لِلْفَتَىٰ ... فَأَوَّلُ مَا يَجْنِي عَلَيْهِ اجْتِهَادُهُ

ثَالِثُهَا: عَدَمُ الْعَجْزِ عَنْ بُلُوغِ الْبُغْيَةِ مِنْهُ.

وَقَدْ جُمِعَتْ هٰذِهِ الْأُمُورُ الثَّلَاثَةُ فِي الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ مُسْلِمُ بنُ الْحَجَّاجِ(١) قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ بْنِ أَبِي أَبِي شَيْبَةَ وَابْنُ نُمَيْرٍ قَالَا: حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنِ إِدْرِيسَ، عَنْ رَبِيعَةَ بْنِ عُثْمَانَ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ يَحْيَىٰ بْنِ حِبَّانَ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «احْرِصْ عَلَىٰ مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَلَا تَعْجِزْ».

فَمَنْ أَرَادَ جَمْعَ هِمَّتِهِ عَلَىٰ الْعِلْمِ، فَلْيُشْعِلْ فِي نَفْسِهِ شُعْلَةَ الْحِرْصِ عَلَيْهِ لِأَنَّهُ يَنْفَعُهُ؛ بَلْ كُلُّ خَيْرٍ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ إِنَّمَا هُوَ ثَمَرَةٌ مِنْ ثَمَرَاتِ الْعِلْمِ، وَلْيَسْتَعِنْ بِاللهِ عَلَيْهِ، وَلَا يَعْجِزْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ فَإِنَّهُ حِينَئِذٍ يُدْرِكُ بُغْيَتَهُ وَيَفُوزُ بِمَا أَمَّلَهُ.

قَالَ الْجُنَيْدُ رَحِمَهُ اللهُ: مَا طَلَبَ أَحَدٌ شَيْئًا بِجِدٍّ وَصِدْقٍ إِلَّا نَالَهُ، فَإِنْ لَمْ يَنَلْهُ كُلَّهُ نَالَ بَعْضَهُ.

الْجِدُّ بِالْجِدِّ وَالْحِرْمَانُ بِالْكَسَلِ ... فَانْصَبْ تُصِبْ عَنْ قَرِيبٍ غَايَةَ الْأَمَلِ

فَانْهَضْ بِهِمَّتِكَ وَاسْتَيْقِظْ مِنَ الْغَفْلَةِ فَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا رُزِقَ هِمَّةً عَالِيَةً فُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ الْخَيْرَاتِ وَتَسَابَقَتْ إِلَيْهِ الْمَسَرَّاتُ.

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ فِي كِتَابِهِ «الْفَوَائِدِ»: (إِذَا طَلَعَ نَجْمُ الْهِمَّةِ فِي ظَلَامِ لَيْلِ الْبَطَالَةِ وَرَدِفَهُ قَمَرُ الْعَزِيمَةِ أَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا).

وَمَنْ تَعَلَّقَتْ هِمَّتُهُ بِمَطْعَمٍ أَوْ مَلْبَسٍ أَوْ مَأْكَلٍ أَوْ مَشْرَبٍ لَمْ يَشَمَّ رَائِحَةَ الْعِلْمِ.

وَاعْلَمْ بِأَنَّ الْعِلْمَ لَيْسَ يَنَالُهُ ... مَنْ هَمُّهُ فِي مَطْعَمٍ أَوْ مَلْبَسِ

فَاحْرِصْ لِتَبْلُغَ فِيهِ حَظًّا وَافِرًا ... وَاهْجُرْ لَهُ طِيبَ الْمَنَامِ وَغَلِّسِ

---

(١) في (٤٦) ك: القدر، (٨) ب: في الأمر بالقوة، وترك العجز، والاستعانة بالله، وتفويض المقادير لله- رقم (٢٦٦٤).

وَإِنَّ مِمَّا يُعْلِي الْهِمَّةَ وَيَسْمُو بِالنَّفْسِ اعْتِبَارَ حَالِ مَنْ سَبَقَ وَتَعَرُّفَ هِمَمِ الْقَوْمِ الْـمَاضِينَ.

فَأَبُو عَبْدِ اللهِ أَحْمَدُ ابْنِ حَنْبَلٍ كَانَ وَهُوَ فِي الصِّبَا رُبَّمَا أَرَادَ الْـخُرُوجَ قَبْلَ الْفَجْرِ إِلَىٰ حِلَقِ الشُّيُوخِ فَتَأْخُذُ أُمُّهُ بِثِيَابِهِ وَتَقُولُ رَحْمَةً بِهِ: حَتَّىٰ يُؤَذِّنَ النَّاسُ أَوْ يُصْبِحُوا.

وَقَرَأَ الْـخَطِيبُ الْبَغْدَادِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «صَحِيحَ الْبُخَارِيِّ» كُلَّهِ عَلَىٰ إِسْمَاعِيلَ الْحِيرِيِّ فِي ثَلَاثَةِ مَجَالِسَ اثْنَانِ مِنْهَا فِي لَيْلَتَيْنِ مِنْ وَقْتِ صَلَاةِ الْـمَغْرِبِ إِلَىٰ صَلَاةِ الْفَجْرِ، وَالْيَوْمُ الثَّالِثُ مِن ضَحْوَةِ النَّهَارِ إِلَىٰ صَلَاةِ الْـمَغْرِبِ وَمِنَ الْـمَغْرِبِ إِلَىٰ طُلُوعِ الْفَجْرِ.

قَالَ الذَّهَبِيُّ فِي «تَارِيخِ الْإِسْلَامِ»: وَهٰذَا شَيْءٌ لَا أَعْلَمُ أَحَدًا فِي زَمَانِنَا يَسْتَطِيعُهُ.

رَحِمَ اللهُ أَبَا عَبْدَ اللهِ كَيْفَ لَوْ رَأَىٰ هِمَمَ أَهْلِ هٰذَا الزَّمَانِ مَاذَا يَقُولُ؟!

وَكَانَ أَبُو مُحَمَّدٍ ابْن التَّبَّانِ أَوَّلَ ابْتِدَائِهِ يَدْرُسُ اللَّيْلَ كُلَّهُ فَكَانَتْ أُمُّهُ تَرْحَمَهُ وَتَنْهَاهُ عَنِ الْقِرَاءَةِ بِاللَّيْلِ، فَكَانَ يَأْخُذُ الْـمِصْبَاحَ وَيَجْعَلُهُ تَحْتَ الْجَفْنَةِ -شَيْءٌ مِنَ الْآنِيَةِ الْعَظِيمَةِ- وَيَتَظَاهَرُ بِالنَّوْمِ فَإِذَا رَقَدَتْ أَخْرَجَ الْمِصْبَاحَ وَأَقْبَلَ عَلَىٰ الدَّرْسِ.

وَقَدْ رَأَيْتُ فِي بَعْضِ الْـمَجْمُوعَاتِ الْخَطِّيَّةِ فِي مَكْتَبَةٍ نَجْدِيَّةٍ خَاصَّةٍ مِمَّا يُنْسَبُ إِلَىٰ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ حَسَنٍ آلِ الشَّيْخِ صَاحِبِ «فَتْحِ الْـمَجِيدِ» قَوْلُهُ رَحِمَهُ اللهُ:

شَمِّرْ إِلَىٰ طَلَبِ الْعُلُومِ ذُيُولَا ... وَانْهَضْ لِذَلِكَ بُكْرَةً وَأَصِيلَا
وَصِلِ السُّؤَالَ وَكُنْ هُدِيتَ مُبَاحِثًا ... فَالْعَيْبُ عِنْدِي أَنْ تَكُونَ جَهُولَا

فَكُنْ رَجُلًا رِجْلُهُ عَلَىٰ الثَّرَىٰ ثَابِتَةٌ، وَهَامَةُ هِمَّتِهِ فَوْقَ الثُّرَيَّا سَامِقَةٍ، وَلَا تَكُنْ شَابَّ الْبَدَنِ أَشْيَبَ الْهِمَّةِ، فَإِنَّ هِمَّةَ الصَّادِقِ لَا تَشِيبُ.

كَانَ أَبُو الْوَفَاءِ ابْنُ عَقِيلٍ أَحَدُ أَذْكِيَاءِ الْعَالَمِ مِنْ فُقَهَاءِ الْـحَنَابِلَةِ يُنْشِدُ وَهُوَ فِي الثَّمَانِينَ:

مَا شَابَ عَزْمِي وَلَا حَزْمِي وَلَا خُلُقِي ... وَلَا وَلَائِي وَلَا دِينِي وَلَا كَرَمِي
وَإِنَّمَا اعْتَاضَ شَعْرِي غَيْرَ صِبْغَتِهِ ... وَالشَّيْبُ فِي الشَّعْرِ غَيْرُ الشَّيْبِ فِي الْهِمَمِ

ذكر المصنف وفقه الله (**الْمَعْقِدُ الثَّالِثُ**) من معاقد تعظيم العلم: وهو (**جَمْعُ هِمَّةِ النَّفْسِ عَلَيْهِ**)؛

أي: جمْعُ همة النفس علىٰ العلم بأن يتوجه إليه بإرادته فلا يشتغل بغيره.

وذكر فيه أن: (شَعَثَ النَّفْسِ) أي: تفرقها، (إِذَا جُمِعَ عَلَىٰ الْعِلْمِ الْتَّامِّ وَاجْتَمَعَ) نال العبد مراده منه، وإذا شُغلت النفس بالعلم وبغيره فإنها تزداد تفرقًا وشتاتًا.

ثم ذكر أن جمع الهمة علىٰ المطلوب يكون بتطلب ثلاثة أمور:

(أَوَّلُها: الْحِرْصُ عَلَىٰ مَا يَنْفَع).

و(ثَانِيهَا: الاسْتِعَانَةُ بِاللهِ عَزَّوَجَلَّ فِي تَحْصِيلِهِ)، أي: في تحصيل ذلك النافع.

و(ثَالِثُهَا: عَدَمُ الْعَجْزِ عَنْ بُلُوغِ الْبُغْيَةِ مِنْهُ)، أي: لا يتقاعد العبد بالوهَن عن إدراك ما يؤمّله ويرجوه من مطلوبٍ ينفعه.

وذكر في ثانيها: وهو الاستعانة بالله عَزَّوَجَلَّ قول الأول:

إِذَا لَمْ يَكُنْ عَوْنٌ مِنَ اللهِ لِلْفَتَىٰ فَأَوَّلُ مَا يَجْنِي عَلَيْهِ اجْتِهَادُهُ

أي: إذا لم يُصحَب العبد بمعونة من الله فإن من أوائل ما يفتح عليه أبواب الشرور اجتهادُه بنفسه، وظنُّه استقلاله واستغناؤه عن الاستمداد من ربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إعانةً وتوفيقًا.

ثم ذكر أن هذه الأمور الثلاثة مجموعة في حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبي ﷺ قال: «احْرِص عَلَىٰ مَا يَنْفَعُك وَاسْتَعِن بِالله وَلَا تَعْجِزْ» بكسر الجيم، وتُفتَح أيضًا.

فإن جمل الحديث الثلاث دالّةً علىٰ هذه الأمور الثلاثة واحدًا فواحدًا.

ثم ذكر أن (مَن أَرَادَ جَمْعَ هِمَّتِهِ عَلَىٰ الْعِلْم، فَلْيُشْعِلْ فِي نَفْسِه شُعْلَةَ الْحِرْصِ عَلَيْه لِأَنَّه يَنْفَعُه؛ بَلْ كُلُّ خَيْرٍ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَة إِنَّمَا هُو ثَمَرَةٌ مِن ثَمَرَات الْعِلْم)، فالعلم أصل كل خير. ذكره القرافي في كتاب «الفروق».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «أصل كلِّ خير في الدنيا والآخرة العلم والعدل، وأصلُ كل شر في الدنيا والآخرة الجهل والظلم». انتهىٰ كلامه.

وهو يرجع إلىٰ ما ذكره القرافي؛ لأن العدل لا يمكن إلا بالعلم، فمَنْ لم يكن له علم لم تكن له قدرةٌ علىٰ العدل، فرجع أصل الخير كله إلىٰ العلم.

ثم قال في الحث عليه: (وَلْيَسْتَعِنْ بِالله عَلَيْه، وَلَا يَعْجِزْ عَنْ شَيْءٍ مِنْه فَإِنَّه حِينَئِذ يُدْرِك بُغْيَتَهُ وَيَفُوزُ بِمَا أَمَّلَه).

وذلك من قول الجنيد والشعر الحسن ما يحرك النفس في هذا، ثم قال: (فَانْهَضْ بِهِمَّتِكَ وَاسْتَيْقِظْ مِنَ الْغَفْلَةِ فَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا رُزِقَ هِمَّةً عَالِيَةً فُتِحَت لَه أَبْوَابُ الْخَيْرَاتِ وَتَسَابَقَتْ إِلَيْه الْمَسَرَّاتُ).

وذكر كلام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتاب «الفوائد» في هذا المعنىٰ.

ثم ذكر من أحوال الأوائل وهمم القوم الماضين ما يحرّك العبد إلىٰ محاذاتهم والاقتداء بهم، فذكر ما كان عليه أحمد ابن حنبل في الصّبا، أنه ربما أراد الخروج قبل الفجر إلىٰ حِلق الشيوخ فتأخذ أمه بثيابه رحمةً به وشفقةً عليه، وتقول: (حَتَّىٰ يُؤَذِّنَ النَّاسُ أَوْ يُصْبِحُوا) أي: أمسك عن الخروج حتىٰ يؤذن الناس أو يستبين الفجر فتخرج قبله.

ثم ذكر الحال التي اتفقت لأبي بكر الخطيب من قراءة («صَحِيحَ الْبُخَارِيِّ» كُلِّهِ عَلَىٰ إِسْمَاعِيلَ الْحِيرِيِّ فِي ثَلَاثَةِ مَجَالِسَ) علىٰ النعت المذكور في وصفها، وهذا الذي ذكره من حال الخطيب مما يستبعد وقوعه مَنْ قعدت همته ويراه شيئًا محالًا.

وربّما عُدّ غلطًا وهو الذي وقع لمحمد بن أبي بكر الشِّلّي في «المشرع الروي» فإنه ذكر أن هذه الحكاية غلط، وأنّ الخطيب قرأ البخاري في خمسة أيام، والصحيح: أن الخطيب قرأ البخاري علىٰ وجه معظَّم عند أولي الهمم مرتين:

إحداهما: قراءته علىٰ كريمة المرْوَزِيّة في خمسة أيام من أيام الحج.

والآخر: قراءته في ثلاثة مجالس علىٰ إسماعيل الحيري، وهي المذكورة هنا.

وقد ذكرها الخطيب نَفْسُهُ عن نَفْسِهِ في كتابه «تاريخ بغداد» في ترجمة شيخه إسماعيل الحيري رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

ثم ما ذكره الذهبي من أنَّ هٰذا الأمر لا يعلم أحدًا يستطيع من أهل زمانه هو علىٰ إرادة استعظامه، لا علىٰ وجه القطع بأنه لا يكون؛ لأن واهب القَدَر هو الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، فالله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يُجري من الخير والمدد لمَنْ يجتبيه من عباده ما لا يكون لغيره، وإن تأخّر زمانه.

فكما ينعم الله عَزَّ وَجَلَّ علىٰ أناس بالسعة في المال ورغد العيش يُنعم الله أعظم وأعظم علىٰ مَنْ يجتبيه من خلقه في إدراك الحقائق الإيمانية، ويذلّل لهم سُبل الوصول إليها.

وقد عمد ابن طولون أحد علماء القرن العاشر إلىٰ محاذاة الخطيب في فعْله، فذكر عن نفسه أنه قرأ البخاري علىٰ أحد شيوخه في الفِهرست الأوسط له علىٰ النّحو الذي قرأه الخطيب البغدادي.

فبعد نحو خمسة قرون اتّفق لابن طولون الحنفي صاحب التصانيف الكثيرة محاذاة الخطيب البغدادي فصنع كما صنع الخطيب.

وذِكْر هٰذه الأحوال وما هو أعظم منها مما كان عليه جماعة من السلف من الصحابة والتابعين وأتباع التابعين من العلم والعمل مما فشا بين الناس بِأَخَرَة استبعاده حتىٰ صار بعضهم يتفوّه بأنه لو صحّت الأسانيد فإنه لا يُسلِّم لهذه الآثار كمَنْ يصلي في الضحىٰ ثلاثمائة ركعة، أو يقرأ القرآن ختمة كاملة كل يوم أو ختمتين، وهذه النُّكْرَةُ التي يجدها هؤلاء- وربما نحن أحيانًا في النُّفوس- هي للبَوْنِ الشاسع والفرق العظيم بين حالنا وحالهم، فإنهم لكمال أحوالهم وتهذيبهم أنفسهم مُكِّنوا من القدرة علىٰ العلم والعمل ما ليس لغيرهم.

وليس بمستبعد أن يجعل الله ﷻ لمَنْ بعدهم شيئًا كانوا عليه، فإنَّ المِنن بيده ﷻ؛ لكن الشأن في الهمة الداعية إلىٰ المطلوب، فإذا ضارع العبد غيره في صلاح النية وكمال الرّغبة أمدّه الله عَزَّوَجَلَّ بقوة لا تكون لأهل عصره وزمانه.

ثم ذكر من أحوال الأوائل أيضًا حال أبي محمد ابن التَّبَّان أنه كان يفعل ما يفعل من دراسته الليل كله، وكانت أمّه تشفق عليه وتنهاه فكان يأخذ المصباح ويجعله تحت الجفنة- وهي آنية عظيمة- ويتظاهر بالنوم- أي: يظهر لها كأنه نام-، فإذا رقدت أخرج المصباح وأقبل علىٰ الدرس.

ثم ذكر بيتين مليحين لعبد الرَّحمٰن بن حسن آل الشيخ صاحب «فتح المجيد» يحثه فيها علىٰ الجد والاجتهاد في أخذ العلم إذ يقول:

شَمِّرْ إِلَىٰ طَلَبِ الْعُلُومِ ذُيُولَا وَانْهَضْ لِذَلِكَ بُكْرَةً وَأَصِيلَا
وَصِلِ السُّؤَالَ وَكُنْ هُدِيتَ مُباحثا فَالْعَيْبُ عِنْدِي أَنْ تَكُونَ جَهُولَا

ثم قال: (فَكُنْ رَجُلًا رِجْلُهُ عَلَىٰ الثَّرَىٰ) أي في الأرض، (وَهَامَةُ هِمَّتِهِ فَوْقَ الثُّرَيَّا) وهي نجم معروف عند العرب، ولشهرته بينهم فإنهم إذا أطلقوا ذِكْر النجم كان مرادَهم، فإذا قيل: طلَع النجم فإنهم يريدون به الثريا.

ثم قال: (وَلَا تَكُنْ شَابَّ الْبَدَنِ أَشْيَبَ الْهِمَّة، فَإِنَّ هِمَّةَ الصَّادِقِ لَا تَشِيبُ.) أي: لا تكن ممَنْ هو في سن الشباب بدنًا، لكن روحه وهمته في حال الشَّيْبِ، وعلله بقوله: (فَإِنَّ هِمَّةَ الصَّادِقِ لَا تَشِيبُ) فإذا صدق المرء في طِلَابِ شيء لم تضعف همته كالضعف الذي يلحق البدن إذا شاب المرء.

وقوله: (أَشْيَبَ الْهِمَّة) هو وصف للرجل إذا خالطه الشيء، فإذا خُلِط الرجل بالشيب قيل له أشيب، ولا يقال له: شايب في أصح قولي أهل اللغة.

والمرأة إذا ظهر شيبها لا يقال لها: امرأة شيباء، فالأشيب وصف مختص بالرجل، ويقال للمرأة: امرأة شمطاء إذا خلطها الشيب، كما يقال للرجل: رجل أشيمط؛ لكن الأشيب مخصوص بالرجل فقط.

ثم ذكر بيتين مليحين لأبي الوفاء بن عقيل، كان ينشدهما وهو ابن ثمانين، إذ يقول:

مَا شَابَ عَزْمِي وَلَا حَزْمِي وَلَا خُلُقِي وَلَا وَلَائِي وَلَا دِينِي وَلَا كَرَمِي
وَإِنَّمَا اعْتَاضَ شَعْرِي غَيْرَ صِبْغَتِهِ وَالشَّيْبُ فِي الشَّعْرِ غَيْرُ الشَّيْبِ فِي الْهِمَمِ

والشيب في الشعر غير الشيب في الهممِ: لأن شَيْبَ الهمة مظنة ضعف الروح، وشيب الشَّعر مظنة ضعف البدن، والرُّوح إذا ضعفت أوهنت الشباب، وإذا بقيت قويّة حملها الجسد وإن كان واهنًا من الكِبر.

ومن بدائع كلم ابن الجوزي قوله: العلم والعمل توأمان أمُّهما علو الهمة. انتهى كلامه؛ أي: إذا علت همة العبد أدرك ما يريد من العلم والعمل، وذو الهمة العالية لا يمنعه كِبَر السن من بلوغ مقصوده.

قال البخاري في كتاب العلم من «صحيحه»: (وتعلم أصحاب النبي ﷺ كبارًا). انتهى كلامه؛ فلم يمنعهم ما لحقهم من الشيب بامتداد أعمالهم وكِبَر سنهم من إدراك العلم الذي جاء به النبي ﷺ، فحصّلوا منه الحظ الأوفى والقِدح المُعَلَّى.

الْـمَعْقِدُ الرَّابِعُ
صَرْفُ الْهِمَّةِ فِيهِ إِلَى عِلْمِ الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ

فَإِنَّ كُلَّ عِلْمٍ نَافِعٍ مَرَدُّهُ إِلَى كَلَامِ اللهِ وَكَلَامِ رَسُولِهِ ﷺ، وَبَاقِي الْعُلُومِ إِمَّا خَادِمٌ لَهُمَا فَيُؤْخَذُ مِنْهُ مَا تَتَحَقَّقُ بِهِ الْخِدْمَةُ أَوْ أَجْنَبِيٌّ عَنْهُمَا فَلَا يَضُرُّ الْجَهْلُ بِهِ.

فَإِلَى الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ يَرْجِعُ الْعِلْمُ كُلُّهُ وَبِهِمَا أُمِرَ النَّبِيُّ ﷺ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾﴾ [الزُّخْرُف].

وَهَلْ أُوْحِيَ إِلَى أَبِي الْقَاسِمِ ﷺ شَيْءٌ سِوَى الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ؟!، وَمَنْ جَعَلَ عِلْمَهُ الْقُرْآنَ وَالسُّنَّةَ كَانَ مُتَّبِعًا غَيْرَ مُبْتَدِعٍ وَنَالَ مِنَ الْعِلْمِ أَوْفَرَهُ.

قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: مَنْ أَرَادَ الْعِلْمَ فَلْيُثَوِّرِ الْقُرْآنَ فَإِنَّ فِيهِ عِلَمَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ.

وَقَالَ مَسْرُوقٌ رَحِمَهُ اللهُ: مَا نَسْأَلُ أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ ﷺ عَنْ شَيْءٍ إِلَّا عِلْمُهُ فِي الْقُرْآنِ إِلَّا أَنَّ عِلْمَنَا يَقْصُرُ عَنْهُ.

وَيُنْسَبُ لِابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ كَانَ يُنْشِدُ:

جَمِيعُ الْعِلْمِ فِي الْقُرْآنِ لَكِنْ ... تَقَاصَرُ عَنْهُ أَفْهَامُ الرِّجَالِ

وَمَا أَحْسَنَ قَوْلَ عِيَاضٍ الْيَحْصُبِيِّ فِي كِتَابِهِ «الْإِلْمَاع»:

الْعِلْمُ فِي أَصْلَيْنِ لَا يَعْدُوهُما ... إِلَّا الْـمُضِلُّ عَنِ الطَّرِيقِ اللَّاحِبِ
عِلْمُ الْكِتَابِ وَعِلْمُ الْآثَارِ الَّتِي ... قَدْ اسْنِدَتْ عَنْ تَابِعٍ عَنْ صَاحِبِ

وَأَعْلَى الْهِمَمِ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ كَمَا قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ «الْفَوَائِد»: (طَلَبُ عِلْمِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَالْفَهْمِ عَنِ اللهِ وَرَسُولِهِ نَفْسَ الْـمُرَادِ وَعِلْمُ حُدُودِ الْـمُنَزَّلِ).

وَقَدْ كَانَ هَذَا هُوَ عِلْمُ السَّلَفِ عَلَيْهِمْ رَحْمَةُ اللهِ، ثُمَّ كَثُرَ الْكَلَامُ بَعْدَهُمْ فِيمَا لَا يَنْفَعُ، فَالْعِلْمُ فِي السَّلَفِ أَكْثَرُ وَالْكَلَامُ فِيمَنْ بَعْدَهُمْ أَكْثَرُ.

قَالَ حَمَّادُ بْنُ زَيْدٍ: قُلْتُ لِأَيُّوبَ السَّخْتِيَانِيِّ: الْعِلْمُ الْيَوْمَ أَكْثَرُ أَوْ فِيمَا تَقَدَّمَ؟

فَقَالَ: الْكَلَامُ الْيَوْمَ أَكْثَرُ وَالْعِلْمُ فِيمَا تَقَدَّمَ أَكْثَرُ.

ذكر المصنف وفقه الله (**الْـمَعْقِدُ الرَّابِعُ**) من معاقد تعظيم العلم وهو: (**صَرْفُ الْهِمَّةِ فِيهِ إِلَى عِلْمِ الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ**)، أي: إنفاق همَّة النفس في العلم إلىٰ علم القرآن والسُّنة؛ لأن العلوم النّافعة تُرد إليهما،

فكل علم نافع فأصله في كلام الله وكلام رسوله ﷺ.

ثم ذكر أنَّ باقي العلوم لها حالان:

الحال الأولىٰ: العلوم الخادمة لكلام الله وكلام رسوله ﷺ، وهي آلات فهمهما- أي: ما يعين علىٰ فهمهما.

ووصفها ابن حجر في «فتح الباري» بقوله: وهي الضَّالة المطلوبة، أي: المقصودة المنشودة، فإن ما خدم الكتاب والسُّنة يُطلَب ابتغاء تحصيل هذه الخدمة لهما.

والحال الأخرىٰ: العلوم الأجنبية عنهما، والأمر فيها ما ذكره بقوله: (فَلَا يَضُرُّ الْجَهْلُ بِهِ)، أي: لا يضر الجهل بالأجنبي عن الكتاب والسُّنة وعن خدمتها.

ووصفها ابن حجر في «فتح الباري» بقوله: وهي الضارة المغلوبة، أي: المفسدة المطَّرحة.

ثم ذكر قول ابن مسعود رضي الله عنه: (مَنْ أَرَادَ الْعِلْمَ فَلْيُثَوِّرِ الْقُرْآنَ) أي: ليبحث عن فهمه بإجالة القلب للنظر في معانيه.

ثم قال: (فَإِنَّ فِيهِ عَلِمَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ).

ثم ذكر قول مسروق وهو أحد التابعين من أهل الكوفة: (مَا نَسْأَلُ أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ ﷺ عَنْ شَيْءٍ إِلَّا عِلْمُهُ فِي الْقُرْآنِ إِلَّا أَنَّ عِلْمَنَا يَقْصُرُ عَنْهُ.) وتصديقه في التنزيل قول الله تعالىٰ: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل:٨٩] أي: مُبيِّنًا موضحًا كل شيء، فكل علم نافع أصله في القرآن الكريم، مَنْ التمسه وجده.

ثم ذكر ما يُنسَب لابن عباس إذ يقول:

جَمِيعُ الْعِلْمِ فِي الْقُرْآنِ لَكِنْ … تَقَاصَرُ عَنْهُ أَفْهَامُ الرِّجَالِ

ثم ذكر بيتي عياض المالكي إذ يقول:

الْعِلْمُ فِي أَصْلَيْنِ لَا يَعْدُوهُمَا … إِلَّا الْمُضِلُّ عَنِ الطَّرِيقِ اللَّاحِبِ
عِلْمُ الْكِتَابِ وَعِلْمُ ٱلْآثَارِ الَّتِي … قَدْ أُسْنِدَتْ عَنْ تَابِعٍ عَنْ صَاحِبِ

والطريق اللاحب: هو الواضح، فالزائغ عن الطريق الواضح لا يُوفَّق إلىٰ أصل العلم؛ وهو علم الكتاب والسُّنة، فمَنْ أصابه مَسُّ الهوىٰ مال عن الهُدىٰ، ففاته العلم النَّافع بقدر ما في قلبه من نجاسة الأهواء والبدع، وإذا زكىٰ قلب العبد بالتَّوحيد والسُّنة فتح الله له من المعارف والعلوم ما يُحجَب عن

غيره من المتلطخين بهذه النجاسات.

فالشأن في إصابة الخير الذي يكون في القرآن والسُّنة من العلم والفهم هو بحسب صدق العبد في التجرد لله عَزَّوَجَلَّ توحيدًا، ولمحمد ﷺ اتّباعًا، فمَنْ وحّد الله، وصدق في اتباعه النبي ﷺ حصل له خير كثير من العلم بالكتاب والسُّنة.

وإذا عرَض للعبد من أحوال الشِّرك والبدعة شيء حُجب عنه الفهم بعروض هاتين النَّجاستين له، فلا سبيل إلىٰ حِيازة الخير المُنطوي في الكتاب والسُّنة إلا بصدق التجرّد في اتباعهما وامتثال أمر الله وأمر رسوله ﷺ.

وإذا كان العبد ذكيًّا غير زَكِيٍّ لِمَا تلطخ به من نجاسات الشرك والبدع فإنه لا يُحرز العلم المأمول من الكتاب والسُّنة، قال الأول:

هَتَفَ الذَّكاءُ وَقَالَ: لَسْتُ بِنَافِعٍ   إِلَّا بِتَوْفِيقٍ مِنَ الوَهَّابِ

فالذكاء بلا زكاء لا ينفع في العلم.

قال ابن تيمية الحفيد في آخر «الحموية» لما ذكر المتكلمين في العقائد في غير الكتاب والسُّنة: (أُوتوا ذكاءً ولم يُؤتوا زكاءً، وأُعطوا علومًا ولم يُعطَوا فهومًا، وجعل الله لهم سمعًا وأبصارًا وأفئدة، فما أغنىٰ عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء..) إلىٰ آخر كلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

ثم ذكر المصنِّف أن أعلىٰ الهمم في طلب العلم هي همة العبد الذي يكون طَلّابًا لعلم الكتاب والسُّنة، والفهم عن الله ورسوله نفس المراد، أي: ما يريده الشرع من العبد في الكتاب والسُّنة، وعلم حدود المُنزَّل من الأحكام.

ثم ذكر أن (هٰذَا هُوَ عِلْمُ السَّلَفِ عَلَيْهِمْ رَحْمَةُ اللهِ، ثُمَّ كَثُرَ الْكَلَامُ بَعْدَهُمْ فِيمَا لَا يَنْفَعُ، فَالْعِلْمُ فِي السَّلَفِ أَكْثَرُ) لأن علمهم كان مداره الكتاب والسُّنة. (وَالْكَلَامُ فِيمَنْ بَعْدَهُمْ أَكْثَرُ) لأن الناس أُغرموا ببسط العبارات وتطويل الإشارات، وحُجبوا بالعلوم الخادمة تارةً، وبالعلوم الأجنبية تارةً أخرىٰ عن علم الكتاب والسُّنة.

ثم ذكر قول (حَمَّادُ بْنُ زَيْدٍ: قُلْتُ لِأَيُّوبَ السَّخْتِيَانِيِّ: الْعِلْمُ الْيَوْمَ أَكْثَرُ أَوْ فِيمَا تَقَدَّمَ؟)، يعني فيما كان عليه كبار التابعين والصحابة قبلهم، (فَقَالَ: الْكَلَامُ الْيَوْمَ أَكْثَرُ)، أي: تفريع الناس في الكلام في العلم

أكثر. (وَالْعِلْمُ فِيمَا تَقَدَّمَ أَكْثَرُ): أي: معرفتهم بالكتاب والسُّنة أعظم من الحال التي انتهىٰ إليها المتأخرون.

وأكثرية العلم عند السَّلف نشأت من تعلّق قلوبهم بطلب فهم الكتاب والسُّنة، والاكتفاءِ بما جاء في خطاب الشرع، وتقليلِ الكلام المخبر عنه فلم تكن من رغبتهم حجْب الخلق بتطويل الكلام عما في القرآن الكريم أو في سنة النبي ﷺ، ولهٰذا كانوا يتكلمون قليلًا، ويُبَارَكُ في قليلهم فيكون فيه من المعاني شيء كثير.

قال ابن أبي العز في «شرح الطحاوية»: (فلذلك كان كلام المتأخرين كثيرًا قليل البركة، بخلاف كلام المتقدمين فإنه قليلٌ كثير البركة). انتهىٰ كلامه.

وأشار إلىٰ هذا المعنىٰ أبو عبد الله ابن القيم في «مدارج السالكين»، وجِلَّة الفوائد التي كانت في كلام الأوائل باعثها تعلقهم بالكتاب والسُّنة مع صلاحية مقصودهم في بث العلم ونشره، ولما وَهنت هذه المقاصد الحسنة في نفوس المتأخرين صاروا يتكلمون كثيرًا وينفعون قليلًا.

فلتبايُن ما بين الأوائل والأواخر من المقاصد الحسنة عرضت هذه الحال لأولئك وتلك الحال للمتأخِّرين.

ومن جميل ما يُذْكَر أنَّ أحد العباد الصالحين واسمه حمدون القَصَّار، قيل له: ما بال كلام السلف أنفع من كلامنا؟ فقال: (لأنهم تكلموا لعِز الإسلام، ونجاة النفوس، ورضا الرَّحمٰن، ونحن نتكلم لعِزة النفس وطلب الدنيا ورضا الخلق). رواه البيهقي في «شعب الإيمان»، وأبو نعيم الأصبهاني في كتاب «حلية الأولياء».

فإذا قايست تباين المقاصد بين هؤلاء وهؤلاء علِمت صدق الفرق بين كلام الأوائل وكلام الأواخر، فلمَّا حسُنت مقاصد الأولين عظُم الانتفاع بكلامهم، ولما شِيبَتْ مقاصد المتأخرين بما يُفسدها حصل من النقص في كلامهم ما يُبِينُ عن كثيرٍ من القول وقليل من النفع.

فتباين الخلق في النفع منشؤه إلىٰ تلك المقاصد، فإذا حسُن القصْد نفعت العبارة القليلة عن الكلام الكثير، وطُوي في أرجائها من الخير والفهم ما يُغني عن كثير من الكلام.

الْمَعْقِدُ الْخَامِسُ
سُلُوكُ الْجَادَّةِ الْمُوصِلَةِ إِلَيْهِ

لِكُلِّ مَطْلُوبٍ طَرِيقٌ يُوصِلُ إِلَيْهِ فَمَنْ سَلَكَ جَادَّةَ مَطْلُوبِهِ أَوْقَفَتْهُ عَلَيْهِ، وَمَنْ عَدَلَ عَنْهَا لَمْ يَظْفَرْ بِمَطْلُوبِهِ وَإِنَّ لِلْعِلْمِ طَرِيقًا مَنْ أَخْطَأَهَا ضَلَّ وَلَمْ يَنَلِ الْمَقْصُودَ، وَرُبَّمَا أَصَابَ فَائِدَةً قَلِيلَةً مَعَ تَعَبٍ كَثِيرٍ.

يَقُولُ الزَّرْنُوجِيُّ رَحِمَهُ اللهُ فِي كِتَابِهِ «تَعْلِيمِ الْمُتَعَلِّمِ»: وَكُلُّ مَنْ أَخْطَأَ الطَّرِيقَ ضَلَّ، وَلَا يَنَالُ الْمَقْصُودَ قَلَّ أَوْ جَلَّ.

وَقَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ فِي كِتَابِ «الْفَوَائِدِ»: الْجَهْلُ بِالطَّرِيقِ وَآفَاتِهَا، وَالْمَقْصُودُ يُوجِبُ التَّعَبَ الْكَثِيرَ مَعَ الْفَائِدَةِ الْقَلِيلَةِ.

وَقَدْ ذَكَرَ هَذَا الطَّرِيقَ بِلَفْظٍ جَامِعٍ مَانِعٍ مُحَمَّدُ مُرْتَضَى بْنُ مُحَمَّدٍ الزَّبِيدِي صَاحِبُ «تَاجِ الْعَرُوسِ» فِي مَنْظُومَةٍ لَه تُسَمَّى «أَلْفِيَّةَ السَّنَدِ» يَقُولُ فِيهَا:

فَمَا حَوَى الْغَايَةَ فِي أَلْفِ سَنَةْ ... شَخْصٌ فَخُذْ مِنْ كُلِّ فَنٍّ أَحْسَنَهْ
بِحِفْظِ مَتْنٍ جَامِعٍ لِلرَّاجِحِ ... تَأْخُذُهُ عَلَى مُفِيدٍ نَاصِحِ

وَطَرِيقُ الْعِلْمِ وَجَادَّتُهُ مَبْنِيَّةٌ عَلَى أَمْرَيْنِ مَنْ أَخَذَ بِهِمَا كَانَ مُعَظِّمًا لِلْعِلْمِ لِأَنَّهُ يَطْلُبُهُ مِنْ حَيْثُ يُمْكِنُ الْوُصُولُ إِلَيْهِ:

فَأَمَّا **الْأَمْرُ الْأَوَّلُ** فَـ(حِفْظُ مَتْنٍ جَامِعٍ لِلرَّاجِحِ)، فَلَابُدَّ مِنْ حِفْظٍ، وَمَنْ ظَنَّ أَنَّهُ يَنَالُ الْعِلْمَ بِلَا حِفْظٍ فَإِنَّهُ يَطْلُبُ مُحَالًا.

وَالْمَحْفُوظُ الْمُعَوَّلُ عَلَيْهِ هُوَ الْمَتْنُ الْجَامِعُ لِلرَّاجِحِ أَيِ الْمُعْتَمَدُ عِنْدَ أَهْلِ الْفَنِّ فَلَا يَنْتَفِعُ طَالِبٌ يَحْفَظُ الْمَغْمُورَ فِي فَنٍّ وَيَتْرُكُ مَشْهُورَهُ، كَمَنْ يَحْفَظُ «أَلْفِيَّةَ الْآثَارِيِّ» فِي النَّحْوِ وَيَتْرُكُ «أَلْفِيَّةَ ابْنِ مَالِكٍ».

وَأَمَّا **الْأَمْرُ الثَّانِي** فَـ(أَخْذُهُ عَلَى مُفِيدٍ نَاصِحٍ) فَتَفْزَعُ إِلَى شَيْخٍ تَتَفَهَّمُ عَنْهُ مَعَانِيَهِ يَتَّصِفُ بِهَذَيْنِ الْوَصْفَيْنِ:

وَأَوَّلُهُمَا الْإِفَادَةُ؛ وَهِيَ الْأَهْلِيَّةُ فِي الْعِلْمِ، فَيَكُونُ مِمَّنْ عُرِفَ بِطَلَبِ الْعِلْمِ وَتَلَقِّيهِ حَتَّى أَدْرَكَ، فَصَارَتْ لَهُ مَلَكَةٌ قَوِيَّةٌ فِيهِ.

وَالْأَصْلُ فِي هَذَا مَا أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ رَحِمَهُ اللهُ فِي «سُنَنِهِ» قَالَ: حَدَّثَنَا زُهَيْرُ ابْنُ حَرْبٍ وَعُثْمَانُ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ قَالَا: حَدَّثَنَا جَرِيرٌ عَنِ الْأَعْمَشِ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ اللهِ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «تَسْمَعُونَ وَيُسْمَعُ مِنْكُمْ وَيُسْمَعُ مِمَّنْ يَسْمَعُ مِنْكُمْ» وَإِسْنَادُهُ قَوِيٌّ.

وَالْعِبْرَةُ بِعُمُومِ الْخِطَابِ، لَا بِخُصُوصِ الْـمُخَاطَبِ، فَلَا يَزَالُ مِنْ مَعَالِـمِ الْعِلْمِ فِي هٰذِهِ الْأُمَّةِ أَنْ يَأْخُذَهُ الْخَالِفُ عَنِ السَّالِفِ.

أَمَّا الْوَصْفُ الثَّانِي فَهُوَ النَّصِيحَةُ وَتَجْمَعُ مَعْنَيَيْنِ اثْنَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: صَلَاحِيَّةُ الشَّيْخِ لِلاقْتِدَاءِ بِهِ وَالِاهْتِدَاءِ بِهَدْيِهِ وَدَلِّهِ وَسَمْتِهِ.

وَالْآخَرُ: مَعْرِفَتُه بِطَرَائِقِ التَّعْلِيمِ بِحَيْثُ يُحسِنُ تَعْلِيمَ الْـمُتَعَلِّمِ وَيَعْرِفُ مَا يَصْلُحُ لَهُ وَمَا يَضُرُّهُ وَفْقَ التَّرْبِيَةِ الْعِلْمِيَّةِ الَّتِي ذَكَرَهَا الشَّاطِبِيُّ فِي «الْمُوَافَقَاتِ».

ذكر المصنف وفقه الله (**الْـمَعْقِد الْـخَامِس**) من معاقد تعظيم العلم وهو: (**سُلُوكُ الْجَادَّةِ الْمُوصِلَةِ إِلَيْهِ**).

والجادَّة: هي الطَّريق.

ثم ذكر: أن كل مطلوب له طريق، مَنْ سلكه وقف عليه، ومَنْ عدل عنه لم يظفر بمطلوبه، ومن جملة ذلك أن للعلم طريقًا فمَنْ سلكها نال ما أراد، ومَنْ أخطأها فإنَّ منتهاه إلىٰ حالين، فمَنْ عدل عن طريق العلم عرَضت له حالان:

الحال الأولىٰ: أن يضل فلا ينال مقصوده.

والحال الأخرىٰ: أن يصيب فائدة قليلة مع تعبٍ كثير.

ثُمّ ذكر من الكلام المنقول عن مَنْ تقدّم ما يدلُّ عليه، ومن جملته ما ذكره ابن القيم إذ قال: (الْـجَهْلُ بِالطَّرِيقِ وَآفَاتِها، وَالْـمَقْصُودُ يُوجِبُ التَّعَبَ الْكَثِيرَ مَعَ الْفَائِدَةِ الْقَلِيلَةِ).

فالتعب الكثير الذي يعرض لطلاب العلم ويحرزون معه فائدة قليلة، منشؤه من أحد ثلاثة أمور ذكرها ابن القيم:

أولها: الجهل بالطريق؛ فيلتمس العلم جاهلًا طريق الوصول إليه.

وثانيها: الجهل بآفات الطَّريق؛ وهي الشرور التي تعرض للعبد فيه.

وثالثها: الجهل بالمقصود؛ أي: بالمراد الأعظم من طلب العلم، وهو الرِّفعة عند الله.

ثم ذكر من نعت الطريق نقلًا عن الزَّبيدي، نظمًا في «ألفية السند» ما يبينه إذ قال:

فَمَا حَوَىٰ الْغَايَةَ فِي أَلْفِ سَنَةْ ... شَخْصٌ فَخُذْ مِنْ كُلِّ فَنٍّ أَحْسَنَه
بِحِفْظِ مَتْنٍ جَامِعٍ لِلرَّاجِحِ ... تَأْخُذُه عَلَىٰ مُفِيدٍ نَاصِحِ

فطريق العلم وجادته مبنية علىٰ أمرين:

(فَأَمَّا الْأَمْرُ الْأَوَّلُ فَـ(حِفْظُ مَتْنٍ جَامِعٍ لِلرَّاجِحِ)، فَلَابُدَّ مَنْ حَفْظٍ)، والمحفوظ المعوَّل عليه هو المتن الجامع للراجح، والمراد به: (الْمُعْتَمَدُ عِنْدَ أَهْلِ الْفَنِّ)، فالمراد بالرُّجحان: اعتماد ذلك المتن لكونه محرَّرًا وفق ما انتهت إليه معرفة أرباب ذلك العلم، (فَلَا يَنْتَفِعُ طَالِبٌ يَحْفَظُ الْمَغْمُورَ فِي فَنٍّ وَيَتْرُكُ مَشْهُورَهُ، كَمَنْ يَحْفَظُ «أَلْفِيَّةَ الْآثَارِيِّ» فِي النَّحْوِ وَيُتْرُكُ «أَلْفِيَّةَ ابْنِ مَالِكٍ».)

فمن معايب أخذ العلم حفظ المتون غير المعتمدة عند أهله، فملتمس العلم لا بد له من حفظ، وقوة الحفظ تُنفَق في المحفوظ المعوَّل عليه مما اعتمده أهل العلم في فنونهم علىٰ اختلافها.

ومما يُخلُّ بحفظ المتن المعتمد آفتان عظيمتان:

إحداهما: حفظه من نُسَخٍ غير مُتْقَنَة؛ فيعمد ملتمس العلم إلىٰ محفوظٍ يتخذ له نسخة لا يبالي بصحتها، فيأخذها بعجرها وبُجرها وربما حفظ ما فيها علىٰ وجه يخالِفُ ما عليه المعتمَد في ضبطه ونقله.

والآفة الثانية: حفظه من نُسخ دخلها الإصلاح، والمراد بالإصلاح: تصرُّف غير المصنِّف في متنٍ ما؛ بأن يعمد أحدٌ إلىٰ متن معتمد فيقوِّم فيه شيئًا رأىٰ أن الأولىٰ كونه علىٰ هذه الجهة؛ كأن يذكر المصنِّف كلامًا فيقول: لو قيل كذا وكذا فهو أولىٰ، ويدخل ذلك في المتن، ويحوله علىٰ هذا الوجه.

ولم يكن أهل العلم يَعْمَدون إلىٰ ذلك؛ بل يجعلون ما يعرض لهم من الإصلاح في حاشية ذلك المتن المعتمد، فإذا اتَّفق وقوع بيت من الشعر مثلًا في متنٍ معتمد علىٰ خلاف ما في الفن اعتمادًا، أو ما يباين قواعد الشعر نظمًا كان يعلِّق أحدهم في حاشية تلك النسخة، فيقول: الأقوم أن يقول: كذا وكذا، ويذكر ذلك الإصلاح.

ومَنْ طالع منكم «شرح ابن غازي المكناسي» علىٰ «ألفية ابن مالك» رأىٰ كثيرًا من الأبيات التي رأىٰ ابن غازي أن يكون لها في النَّظم وجه آخر غير الوجه الذي ذكره ابن مالك؛ لكن لم يعمد أحد من تلاميذ ابن غازي ولا مَنْ بعدهم من أبناء تلك المدرسة المغربية إلىٰ جعل إصلاح ابن غازي أصلًا يُحفَظ فيُدخَل في أبيات الألفية ما عنَّ لابن غازي من التقويم، ثم يُحمَل الناس عليه، فإن هٰذا ممَّا يُعاب ولا يُحمَد.

ومَنْ كانت عنده زيادة علم يريد بها نفع الناس في إصلاح شيء من المتون المعتمدة فإنه يجعلها في حاشيةِ ذلك المتن المعتمد حفظًا لحقِّ صاحبه، وتعظيمًا لبقاء المتن المعتمد علىٰ ما تداوله أهل الفن.

ويرتفع هذا العيب إذا تعلق هذا الإصلاح بخطاب الشَّرع؛ فإنه حينئذٍ يكون سائغًا كأن يكون مقيّد متن معتمد جعله علىٰ قراءةٍ غير القراءة المشهورة في البلد، فأُثبت ما في ذلك المتن من الآيات وَفق القراءة المشهورة كالأمر الذي عمد إليه أشياخُنا فمنْ قبلهم من المشارقة إلىٰ تحويل قراءات الآيات الواردة في «الواسطية» إلىٰ خلافِ القراءة التي كان يقرأ بها المصنِّف ابن تيمية الحفيد؛ فإنه كان يقرأ بحرف أبي عمرو بن العلاء، ثم جعلَه أهل العلم من المشارقة لم طبعوا «الواسطية» علىٰ حرف رواية حفص عن عاصم، فمثل هذا مما يُحمل.

ومثله كذلك: إصلاح ألفاظ الحديث النبوي في متن ما وفق ما في الأصول التي عُزي إليها، فلو قُدِّر أن متنًا ما ذكر لفظًا في حديث معزوًا إلىٰ كتاب، ثم فُقد هذا اللفظ من نسخنا لم يكن معيبًا أن يُحمل هذا اللفظ علىٰ وَفق ما نجده في الأصول التي عُزِيَ إليها.

ثم ذكر (الْأَمْر الثَّانِي): وهو (أَخْذُ) ذلك المتن (عَلَىٰ مُفِيدٍ نَاصِحٍ)؛ فيفزع إلىٰ شيخ يتفهم عنه معاني ذلك المتن يتصف بوصفين:

(وَأَوَّلُهُمَا الْإِفَادَة؛ وَهِي الْأَهْلِيَّة فِي الْعِلْم، فَيَكُونُ مِمَّن عُرِفَ بِطَلَبِ الْعِلْمِ وَتَلَقِّيهِ حَتَّىٰ أَدْرَكَ، فَصَارَتْ لَهُ مَلَكَةٌ قَوِيَّةٌ فِيهِ)، وذكر الأصل فيه وهو حديث (ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «تَسْمَعُونَ وَيُسْمَعُ مِنْكُم وَيُسْمَعُ مِمَّن يَسْمَعُ مِنْكُمْ»)؛ أي: تتلقوْن العلم بالأخذ عني - أي: عن النبي ﷺ - ثم يتلقاه عنكم مَنْ بعدكم، وهكذا في قرون الأمة، فإنَّ (الْعِبْرَة بِعُمُومِ الْخِطَابِ، لَا بِخُصُوصِ الْمُخَاطَبِ).

و(أَمَّا الْوَصْفُ الثَّانِي فَهُوَ النَّصِيحَةُ)؛ بأن يكون المعلم ناصحًا، (وَتَجْمَعُ مَعْنَيَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: صَلَاحِيَّةُ الشَّيْخ لِلاقْتِدَاءِ بِهِ وَالِاهْتِدَاءِ بِهَدْيِهِ وَدَلِّهِ وَسَمْتِهِ.

وَالْآخَرُ: مَعْرِفَتُه بِطَرَائِقِ التَّعْلِيم).

فأمَّا الأول: وهو صلاحيته للاقتداء به: أن يكون علىٰ حالٍ حسنة من امتثال الشريعة، فيصلح أن يكون مقتدًىٰ به بامتثالِها، مع الاهتداء بِهَدْيِهِ وَدَلِّهِ وَسَمْتِهِ.

والهَدْي: اسمٌ للطريقة التي يكون عليها العبد، وهو جامع للدل والسمت، فعطفهما عليه من عطف

الخاص على العام، والفرق بينهما: أن **الدَّلّ** هو الهدي المتعلِّق بالصُّورة الظَّاهرة، **والسَّمت**: هو الهدي المتعلق بالأفعال اللازمة أو المتعدية الصادرة من العبد.

وأما معرفته طرائق التعليم: فالمراد بها معرفته بمسالك إيصاله للمتعلمين، وهي التي أرادها بقوله: (بِحَيْثُ يُحسِنُ تَعْلِيمَ الْـمُتَعَلِّمِ وَيَعْرِفُ مَا يَصْلُحُ لَهُ وَمَا يَضُرُّهُ وَفْقَ التَّرْبِيَةِ الْعِلْمِيَّةِ الَّتِي ذَكَرَهَا الشَّاطِبِيُّ فِي «الْمُوَافَقَاتِ».)؛ فإن إيصال العلم إلىٰ الناس يكون علىٰ أنحاءٍ مختلفة، ويتباين ما يصلح الناس به بِحَسَبِ أحوالهم في أنفسهم أو في أزمانهم، أو في بلدانهم.

فبرنامج تيسير العلم وبرنامج مهمات العلم يخرج نُوره من هذه المشكاة التي ذكرها الشاطبي في طرائق التعليم من معرفة ما يصلح للمتعلِّم، ويحسن تعليمه له، فإنَّ الناس يعرض لهم من ضيق أوقاتهم وكثرة أشغالهم، وتجدد أحوالهم ما يُوجب الاعتناء بطلب ما يُحفَظ به دينُهم، كما يُحملون علىٰ أمور مُقَدَّرة من العقوبات إذا تجدَّد لهم شيء من الفساد لم يكن عند مَنْ قبلهم.

قال عمر بن عبد العزيز: (تحدُث للناس أقضية بقدر ما يُحْدِثُون من الفساد)، تحدث للناس أقضية- أي: أحكام في القضاء- بقدر ما يُحدثون من الفساد رغبةً في ردهم عن هٰذا الغيِّ والشر.

وكما يكون هذا في حبس الناس عن الغي يكون في حملهم علىٰ الخير، فيُتطلَّب من مسالك إيصال الخير إليهم- ومن جملته العلم- ما يُناسب الحال التي صاروا عليها ليُحفَظ دينُهم، فإنَّ مجاراة الحال التي صاروا عليها الناس من الوظائف والأعمال أضعَفت الدِّين والعلم في نفوس الخلق؛ فينبغي أن يكون من مسالك إيصاله ما يُلاحَظ فيه هٰذا الأمر.

ولا يُحصَر علىٰ هذا المسلك؛ بل مسالك إيصال العلم متنوِّعة، وبيان العلم يكون تارةً مطوَّلًا وتارة متوسطًا، وتارةً موجزًا، ولابن خلدون كلام جميل في ذلك، عظيم الفائدة، تجده في «المقدمة» له.

وأصل هذا في السُّنة بيّن ظاهر فيما رواه مسلم من حديث عَزْرة بن ثابت، عن علباء بن أحمر، عن عمرو بن أخطب رضي الله عنه أنَّ النبي ﷺ صلَّىٰ بهم الفجر، ثم صعِد المنبر فخطبهم حتىٰ جاء وقتُ الظُّهر، فنزل فصلىٰ بهم الظهر، ثم صعد المنبر فخطبهم حتىٰ جاء وقتُ العصر فصنع مثل ذلك بعد العصر، ثم صنع بعد ذلك بعد المغرب، قال عمرو: فأخبرنا بما كان وما هو كائن.

فانظر إلىٰ هذه الحال التي حُفظت في السُّنّة من قيامه ﷺ خطيبًا معلِّمًا بعد أوقات الصلوات

الأربعة: الفجر، والظهر، والعصر، والمغرب، حتىٰ انتهىٰ إلىٰ العشاء، فلم يحبسه عن ذلك شيء، فكان المعلِّم هو محمَّدٌ ﷺ، وكان المعلَّم هو كل ما كان وما هو كائن، وهو من العظمة بمكان.

ثم تباين الناس فيه؛ فقال عمرو: فأعلمُنا أحفظنا، أي تباين الصحابة في نقل ما أخبر به النبي ﷺ بحسب اختلاف مقاديرهم في حفظ العلم.

وتتابع العمل بهذا الأصل في قرون الأمة، والطبقة السابقة من أهل العلم كان هذا ديْدانهم.

وأبين شيء يظهر لك ذلك: أن تعمد إلىٰ الشروح التي أملاها شيخُنا ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ علىٰ جُملة من الكتب كـ«كتاب التوحيد»، أو «القواعد الأربع»، أو «العقيدة الواسطية»، أو «كشف الشبهات»، فإنّ المُدد التي شرح فيها هٰذه المتون هي في جملةٍ منها أقل من المدد التي يُبيَّن فيها معاني تلك المتون علىٰ وجه الإجمال في هٰذه المجالس.

والمراد من ذلك إيصال الناس إلىٰ الخير ليَرغبوا في هذا العلم ويحبُّوه، ثم تتطلع نفوسهم إلىٰ الزيادة منه، بإعادة النظر مرة بعد مرة في هٰذه الأصول.

وأبلغ شيءٍ يدّلك علىٰ الإلضاء بهذه الأصول ومَسْكها باطنًا وظاهرًا هو تكرار دَرْسها مرة بعد مرة لشدة الانتفاع بها، فإن المعلِّم فضلًا عن المتعلمين يحتاجُ إلىٰ أن يعيد بيانها مرة بعد مرة ليثبُت العلم في قلبه.

ثم يظهر من آثاره من الفهم والإدراك ما يؤنس كل واحد منا إذا أعاد أخذ هذه الأصول مرة بعد مرة.

الْمَعْقِدُ السَّادِسُ

رِعَايَةُ فُنُونِه فِي الأَخْذِ وَتَقْدِيمُ الأَهَمِّ فَالْمُهِمِّ

إِنَّ الصُّورَةَ الْـمُسْتَحْسَنَةَ يَزِيدُ حُسْنُهَا بِتَمَتُّعِ الْبَصَرِ بِجَمِيعِ أَجْزَائِهَا وَيُفُوتُ مِن حُسْنِهَا عِنْدَ النَّاظِرِ بِقَدْرِ مَا يَحْتَجِبُ عَنه مِنْ أَجْزَائِهَا.

وَالْعِلْمُ هَكَذَا مِنْ رَعَى فُنُونَهُ بِالْأَخْذِ وَأَصَابَ مِنْ كُلِّ فَنٍّ حَظًّا كَمُلَتْ آلَتُهُ فِي الْعِلْمِ.

قَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «صَيْدِ خَاطِرِه»: جَمْعُ الْعُلُومِ مَمْدُوحٌ.

مِنْ كُلِّ فَنٍّ خُذْ وَلَا تَجْهَلْ بِهِ ... فَالْحُرُّ مُطَّلِعٌ عَلَى الْأَسْرَارِ

يَقُولُ شَيْخُ شُيُوخِنَا مُحَمَّدُ بْنُ مَانِعٍ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «إِرْشَادِ الطُّلَّابِ»: وَلَا يَنْبَغِي لِلْفَاضِلِ أَنْ يَتْرُكَ عِلْمًا مِنَ الْعُلُومِ النَّافِعَةِ الَّتِي تُعِينُ عَلَى فَهْمِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّة، إِذَا كَانَ يَعْلَمُ مَنْ نَفْسِهِ قُوَّةً عَلَى تَعَلُّمِهِ، وَلَا يَسُوغُ لَهُ أَنْ يَعِيبَ الْعِلْمَ الَّذِي يَجْهَلُهُ وَيُزْرِي بِعَالِمِهِ، فَإِنَّ هٰذَا نَقْصٌ وَرَذِيلَةٌ ، فَالْعَاقِلُ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِعِلْمٍ أَوْ يَسْكُتَ بِحِلْمٍ، وَإِلَّا دَخَلَ تَحْتَ قَوْلِ الْقَائِلِ:

أَتَانِي أَن سَهْلًا ذَمَّ جَهْلًا ... عُلومًا لَيْسَ يَعْرِفُهُنَّ سَهْلُ

عُلُومًا لَوْ قَرَاهَا مَا قَلَاهَا ... وَلَكِنَّ الرِّضَا بِالْجَهْلِ سَهْلُ

انْتَهَىٰ كَلَامُه.

وَإِنَّمَا تَنْفَعُ رِعَايَةُ فُنُونِ الْعِلْم بِاعْتِمَادِ أَصْلَيْن:

أَحَدُهُمَا: تَقْدِيمُ الأَهُمِّ فَالمُهِمِّ مِمَّا يَفْتَقِرُ إِلَيْه الْـمُتَعَلِّمُ فِي الْقِيَامِ بِوَظَائِفِ الْعُبُودِيَّةِ لله، سُئِلَ مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ -إِمَام دَارِ الْهِجْرَةِ- عَنْ طَلَبِ الْعِلْمِ فَقَالَ: حَسَنٌ جَمِيلٌ؛ وَلَكِن انْظُرْ الَّذِي يَلْزَمُكَ مِنْ حِينِ تُصْبِحُ إِلَىٰ حِينِ تُمْسِي فَالْزَمْهُ.

قَال أَبُو عُبَيْدَة مَعْمَرُ بْنُ الْـمُثَنَّى رَحِمَهُ اللَّهُ: مَن شَغَلَ نَفْسَهُ بِغَيْرِ الْـمُهِمِّ أَضَرَّ بِالْـمُهِمِّ.

وَقَدِّمِ الْأَهَمَّ إِنَّ الْعِلْمَ جَمّ ... وَالْعُمْرُ طَيْفٌ زَارَ أَو ضَيفٌ أَلَمّ

وَالْآخَرُ: أَنْ يَكُونَ قَصْدُهُ فِي أَوَّلِ طَلَبِهِ تَحْصِيلُ مُخْتَصَرٍ فِي كُلِّ فَنٍّ حَتَّى إِذَا اسْتَكْمَلَ أَنْوَاعَ الْعُلُومِ النَّافِعَةِ نَظَرَ إِلَىٰ مَا وَافَق طَبْعَهُ مِنْهَا وَآنس مِن نَفْسِهِ قُدْرَةً عَلَيْهِ فَتَبَحَّرَ فِيهِ سَوَاءٌ كَانَ فَنًّا وَاحِدًا أَمْ أَكْثَرَ.

أَمَّا بُلُوغُ الْغَايَةِ فِي كُلِّ فَنٍّ وَالتَّحَقُّقُ بِمَلَكَتِهِ فَإِنَّمَا يُهَيَّأُ لَهُ الْوَاحِدُ بَعْدَ الْوَاحِدِ فِي أَزْمِنَةٍ مُتَطَاوِلَةٍ، ثُمَّ يَنْظُرُ الْـمُتَعَلِّم فِيمَا يُمْكِنُهُ مِنْ تَحْصِيلِهَا إِفْرَادًا لِلْفُنُونِ وَمُخْتَصَرَاتِهَا وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ، أَوْ جَمْعًا لَهَا

وَالْإِفْرَادُ هُوَ الْـمُنَاسِبُ لِعُمُومِ الطَّلَبَةِ، وَمِنْ طَيّارِ شِعْرِ الشَّنَاقِطَةِ قَوْلُ أَحَدِهِم:

وَإِنْ تُـرِدْ تَحْصِـيلَ فَـنٍّ تَمِّمَـهْ وَعَـنْ سِـوَاهُ قَبْـلَ الِانْتِهَـاءِ مَـهْ
وَفِي تَرَادُفِ الْعُلُومِ الْـمَنْعُ جَا إِنْ تَوْأَمَـانِ اسْـتَبَقَا لَـنْ يَخْرُجَـا

وَمَنْ عَرَفَ مِنْ نَفْسِهِ الْقُدْرَةَ عَلَىٰ الْـجَمْعِ جَمَعَ وَكَانَتْ حَالُهُ اسْتِثْنَاءً مِنَ الْعُمُومِ.

وَمِنْ نَوَاقِضِ هٰذَا الْـمَعْقِدِ الْـمُشَاهَدَةِ: الْإِحْجَامُ عَـنْ تُنَـوِّعِ الْعُلُـومِ وَالاسْـتِخْفَافُ بِـبَعْضِ الْـمَعَارِفِ وَالِاشْتِغَالُ بِمَا لَا يَنْفَعُ مَعَ الْوَلَعِ بِالْغَرَائِبِ، وَكَانَ مَالِكٌ يَقُولُ: شَرُّ الْعِلْمِ الْغَرِيبُ وَخَيْرُ الْعِلْمِ الظَّاهِرُ الَّذِي قَدْ رَوَاهُ النَّاسُ.

ذكر المصنّف وفقه الله (الْمَعْقِـدِ السَّـادِسِ) مـن معاقـد تعظـيم العلـم وهـو: (رِعَايَـةُ فُنُونِـه فِـي الأَخْذِ)؛ أي: الإقبال علىٰ تلقِّيها. (وَتَقْدِيمُ الأَهَمِّ فَالْمُهِمِّ): أي: تقديم ما تشتدُّ إليه حاجتـه، وتتأكـد في حقه طِلْبَتُه.

ثم ذكر أن (الصُّورَةَ الْـمُسْتَحْسَنَةَ يَزِيدُ حُسْنُهَا) بتمتيع (الْبَصَرِ بِجَمِيعِ أَجْزَائِهَا وَيُفُوتُ مِن حُسْنِهَا عِنْـدَ النَّاظِرِ بِقَدْرِ مَا يَحْتَجِبُ عَنْه مِنْ أَجْزَائِهَا. وَالْعِلْمُ هَكَذَا)، فإنَّ مَنْ أخـذ منه طرفًا في كـل فـنّ رأىٰ جمـال العلم أكثر ممَنْ يقصر نفسه علىٰ بعض فنونه أو فن واحد منها.

ثم قال: (مِنْ رَعَىٰ فُنُونَهُ بِالْأَخْذِ وَأَصَابَ مِنْ كُلِّ فَنٍّ حَظًّا كَمُلَتْ آلَتُهُ فِـي الْعِلْـمِ)؛ لأنَّ العلـم أصـل يجمع بعضه بعضًا، وترجع أفراده إلىٰ أصل واحدٍ، فكمال الآلة فيه أن يصيب حظًّا من كل ما له تعلـق في العلم.

ثم ذكر قول ابن الجوزي: (جَمْعُ الْعُلُومِ مَمْدُوحٌ).

ثم ذكر بيتًا لابن الوردي يقول فيه:

مِنْ كُلِّ فَنٍّ خُـذْ وَلَا تَجْهَـلْ بِـهِ فَـالْحُرُّ مُطَّلِـعٌ عَلَـىٰ الْأَسْـرَارِ

ثم ذكر وصيتين عظيمتين من وصايا العلامة محمد بن مانع رَحِمَهُ اللَّهُ في« إرشاد الطـلاب»، وهـو كتـاب عظيم النفع في تحصيل العلم وأدبه:

الأولىٰ: أنه (لَا يَنْبَغِي لِلْفَاضِلِ أَن يَتْرُك عِلْمًا مَنَ الْعُلُومِ النَّافِعَةِ).

والثانية: أنه (لَا يَسُوغُ لَهُ أَنْ يَعِيبَ الْعِلْمَ الَّذِي يَجْهَلُهُ وَيُزْرِي بِعَالِمِهِ).

فأما الوصية الأولىٰ ففي قوله: (وَلَا يَنْبَغِي لِلْفَاضِلِ أَن يَتْرُك عِلْمًا مَنَ الْعُلُومِ النَّافِعَةِ الَّتِـي تُعِـينُ عَلَـىٰ

فَهْمِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّة) وذكر شرط ذلك بقوله: (إِذَا كَانَ يَعْلَمُ مَنْ نَفْسِهِ قُوَّةً عَلَىٰ تَعَلُّمِهِ) فإنَّ أخذ العلم يرجع إلىٰ القوىٰ، وتقدير القوىٰ يكون بإرشاد المعلِّمين، فإنَّ المتعلِّم لا يعرف حظه من العلم، ولا يدرك مبلغه منه، فإذا كان له معلم ناصح أرشده إلىٰ ما ينفعُه من العلوم.

وأما الوصية الثانية: فقال فيها: (وَلَا يَسُوغُ لَهُ أَنْ يَعِيبَ الْعِلْمَ الَّذِي يَجْهَلُهُ وَيُزْرِي بِعَالِمِهِ) أي: يحطّ من قدْره، وعلله بقوله: (فَإِنَّ هٰذَا نَقْصٌ وَرَذِيلَةٌ) أي: نقص في حق المتكلم وهو حال رذالة له.

وقال بعد: (فَالْعَاقِلُ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِعِلْمٍ أَوْ يَسْكُتَ بِحِلْمٍ) فإنَّ الكلام يُمدَح إذا كان بعلم، والسكوت يُمدَح إذا كان بحلم.

فإذا كان الكلام بجهل والسُّكوت بطيشٍ يُراد به الغض من رتبة علم إذا ذُكِر عند أحد فسكت عيبًا لذلك العلم، فهٰذا مما يُزري بالمرء ويدل علىٰ نقص عقله.

ثم قال: (وَإِلَّا دَخَلَ تَحْتَ قَوْلِ الْقَائِلِ:

أَتَانِي أَنْ سَهْلًا ذَمَّ جَهْلًا ... عُلومًا لَيْسَ يَعْرِفُهُنَّ سَهْلُ
عُلُومًا لَوْ قَرَاهَا مَا قَلَاهَا ... وَلَكِنَّ الرِّضَا بِالْجَهْلِ سَهْلُ)

ومعنىٰ قوله: (مَا قَلَاهَا): أي: ما أبغضها، فالقِلىٰ: هو البغض، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾[الضحىٰ].

ثم ذكر أن (رِعَايَةُ فُنُونِ الْعِلْمِ) تنفع (بِاعْتِمَادِ أَصْلَيْنِ):

أَحَدُهُمَا: تَقْدِيمُ الْأَهَمِّ فَالْمُهِمِّ)، وبيّن تدريجه بقوله: (مِمَّا يَفْتَقِرُ إِلَيْهِ الْمُتَعَلِّمُ فِي الْقِيَامِ بِوَظَائِفِ الْعُبُودِيَّةِ)، فالمراد من أخذ العلم أن تعرف مات عبد به الله ﷻ.

فالمُقدَّم في حقِّك ما تمسُّ حاجتك إليه، فمن الجهالة البيّنة أن يعمد المبتدئ إلىٰ طلب علم الأصول أو النحو أو القواعد الفقهية، وهو لم يتعلم ما يلزمه ديانةً من الاعتقاد السُّنِّي، أو الآداب أو الأذكار، أو شروط الصَّلاة وأحكامها وصفتها، أو شروط الوضوء وأحكامه وصفته؛ فإنَّ هذا تضييع لما عُلِّق بذمة العبد من العبوديات التي يُطالَب بها.

وذكر قول مالك بن أنس لما سُئل (عَنْ طَلَبِ الْعِلْمِ فَقَالَ: حَسَنٌ جَمِيلٌ؛ وَلَكِنِ انْظُرِ الَّذِي يَلْزَمُكَ مِنْ حِينِ تُصْبِحُ إِلَىٰ حِينِ تُمْسِي فَالْزَمْهُ).

ثم ذكر الأمر (الْآخَرُ) فقال: (أَنْ يَكُونَ قَصْدُهُ فِي أَوَّلِ طَلَبِهِ تَحْصِيلُ مُخْتَصَرٍ فِي كُلِّ فَنٍّ) بأن يأخذ

من كل فن طرفًا بدراسة مختصر، ثم (إِذَا اسْتَكْمَلَ أَنْوَاعَ الْعُلُومِ النَّافِعَةِ نَظَرَ إِلَىٰ مَا وَافَقَ طَبْعَهُ مِنْهَا وَآنَسَ مِنْ نَفْسِهِ قُدْرَةً عَلَيْهِ) بإرشاد شيخه فتبحر فيه سواءً كان فنًا واحدًا أم أكثر.

ثم قال: (أَمَّا بُلُوغُ الْغَايَةِ فِي كُلِّ فَنٍّ) أي: النهاية، (وَالتَّحَقُّقُ بِمَلَكَتِهِ) أي: حتىٰ يصير راسخًا في النفس، (فَإِنَّمَا يُهَيَّأُ لَهُ الْوَاحِدُ بَعْدَ الْوَاحِدِ فِي أَزْمِنَةٍ مُتَطَاوِلَةٍ) فالحد الذي يحظىٰ به جمهور الخلق أن يصيبوا أصلًا نافعًا بضبط مختصر في فن، أما بلوغهم التحقيق في كل فن فهذا يعسر علىٰ جمهور الخلق.

ثم ذكر بعد ذلك أن المتعلم ينظر (فِيمَا يُمْكِنُهُ مِنْ تَحْصِيلِهَا إِفْرَادًا لِلْفُنُونِ وَمُخْتَصَرَاتِهَا وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ، أَوْ جَمْعًا لَهَا وَالْإِفْرَادُ هُوَ الْـمُنَاسِبُ لِعُمُومِ الطَّلَبَةِ)، فيعمد إلىٰ متن في فن فيتلقاه حتىٰ إذا استوفاه انتقل إلىٰ متن في فن آخر، ثم إذا استوفاه انتقل إلىٰ متن في فنّ آخر ممّا يحتاجه ويفتقر إليه.

ولا يحبس نفسه علىٰ علم واحد حتىٰ يبلغ غايته؛ فإنّ هذا يطول ويضيِّع به ما يلزمه، فلو قُدِّر أن أحدًا أراد أن يترقىٰ في معرفة اعتقاد أهل السُّنة والجماعة فأخذ علىٰ نفسه تلقي متونهم من مبتدئها إلىٰ منتهاها يكون قد شُغِل مدة عن علوم تلزمه من الطهارة والصلاة والأذكار والآداب؛ لكنه إذا أخذ مختصرًا نافعًا في كلِّ فنٍّ أصاب حظه منها، ثم يترقىٰ بعد ذلك في هذه العلوم أو غيرها إلىٰ ما وراءها من التصانيف.

ثم ذكر بيتين في الإرشاد إلىٰ ذلك إذ يقول صاحبهما: (وَإِنْ تُرِدْ تَحْصِيلَ فَنٍّ تَمِّمَهْ) أي: أتمه. (وَعَنْ سِوَاهُ قَبْلَ الِانْتِهَاءِ مَهْ) مه: وهي كلمة زجر، أي: انته عن ذلك، فلا تدخل في غيره حتىٰ تتمه.

ثم قال: (وَفِي تَرَادُفِ الْعُلُومِ) أي: في الجمع بين علمين أو أكثر، بأن يكون أحدهما رديفًا للآخر:

وَفِي تَرَادُفِ الْعُلُومِ الْـمَنْعُ جَا إِنْ تَوْأَمَانِ اسْتَبَقَا لَنْ يَخْرُجَا

أي: شبهه بالولدين الخارجين من بطن الأم، فإنّهما إذا ازدحما عند باب الرحم لم يخرجا، وعسر ميلادهما بخلاف ما إذا خرج أحدهما ثم خرج الثاني، فكذلك أخذ العلم إذا كان علىٰ هذه الحال من تتميم شيء، ثم الانتقال إلىٰ غيره انتفع به العبد.

وقوله: (وَمِنْ طَيّارِ شِعْرِ الشَّنَاقِطَةِ) الشعر الطيار: هو الذي لا يُعلَم قائله، وإلىٰ ذلك أشرت بقولي:

شائع الأشعار إن لم يُعلمِ قائله الطيَّار بين الأممِ

ثم ذكر أن (وَمَنْ عَرَفَ مِنْ نَفْسِهِ الْقُدْرَةَ عَلَىٰ الْـجَمْعِ جَمَعَ وَكَانَتْ حَالُهُ اسْتِثْنَاءً مِنَ الْعُمُومِ) فهذا

يعرض لبعض مَنْ لهم قوىً خارقة- كما ذكر القرافي- أنه يكون في الناس مَنْ يُؤتىٰ فهمًا وذكاءً وحفظًا، فيكون عليه من مؤونة العلم شرعًا ما لا يكون علىٰ غيره بأن يُنفق هذه القوىٰ في حفظ علم الشريعة.

ويرشده إلىٰ ما ينفعه معلمه الذي يرجع إليه، هل يصلح له أن يجمع مع هٰذا المتن غيره أم لا يصلح له ذلك.

ثم ذكر ثلاثة أمور من نواقض هٰذا المعقد، أي ما يباين هذا المعقد:

أولها: (الإِحْجَامُ عَنْ تَنَوّعِ الْعُلُومِ)؛ فتجد من الخلق مَنْ يوقف نفسه علىٰ علمٍ واحد، ويحجبها عن تنوّع العلوم، وهذا يرجع عليه بالضَّعف حتىٰ في العلم الذي يدعي أنه يتخصص فيه.

وثانيها: (الاسْتِخْفَافُ بِبَعْضِ الْـمَعَارِفِ)، أي عدم المبالاة بها؛ فتجد أحدَهم إذا برَّز في الحديث عاب التفسير وأهله، فقال: أكثر ما يُنقل في التفاسير ضعيف الإسناد، والمتكلمون في التفسير لا معرفة لهم بالأسانيد، فهم ينقلون نقل مِعْوَلٍ عن مِعْوَل.

وإذا كان مُبَرِّزًا في الفقه، ولا يعلم الحديث عاب الحديثَ؛ لأن المقصود من الحديث العمل، وفي «الصحيحين» ما يغني في بيان الأحكام عن تطَلُّبِ معرفة علوم الحديث والجرح والتعديل، وما تعلق بها، وهذا داءٌ مشهود في الناس قديمًا وحديثًا والسلامة منه ألا تستخفَّ بشيء من المعارف الإسلامية، فالعلوم التي بُثّت في الأمة وانتشرت في أنحائها قديمًا وحديثًا هي من العلوم المقبولة التي يُرفَع إليها الرّأس ويُحَث عليها الناس.

ثم ذكر ثالثها فقال: (وَالِاشْتِغَالُ بِمَا لَا يَنْفَعُ مَعَ الْوَلَعِ بِالْغَرَائِبِ)، فتجد أحدَهم يشتغل بأمور لا تنفعه من العلم، ويترك النافع له، ويعظم البلاء إذا كان له غرامٌ بالغرائب، فيتتبّع ما لا ينفع من العلم إذا كان غريبًا، فتجد أحدهم يتلمّس الأدلة المُبَيِّنَة عن ماء طوفان نوح هل كان عذبًا أم مالحًا؟!

والسيوطي رَحِمَهُ اللَّهُ في أحد كتبه ذكر ذلك فقال: كان كثير من الناس يسألوني عن طوفان ماء نوح هل كان عذبًا أم مالحًا؟..إلىٰ آخر ما ذكر.

فمثل هذا من الجنس الذي يوهن رعاية فنون العلم، ويقطع متلمّس العلم عن أخذه؛ فإن العمر قصير، والعلم كثير، والعاقل يحمِلُ نفسه علىٰ ما ينفعه من العلم.

الْمَعْقِدُ السَّابِعُ

الْمُبَادَرَةُ إِلَى تَحْصِيلِهِ وَاغْتِنَامُ سِنِّ الصِّبَا وَالشَّبَابِ

فَإِنَّ الْعُمُرَ زَهْرَةٌ: إِمَّا أَنْ تَصِيرَ بِسُلُوكِ الْمَعَالِي ثَمَرَةً، وَإِمَّا أَنْ تَذْبُلَ وَإِنَّ مِمَّا تُثْمِرُ بِهِ زَهْرَةُ الْعُمُرِ: الْمُبَادَرَةَ إِلَى تَحْصِيلِ الْعِلْمِ، وَتَرْكُ الْكَسَلِ وَالْعَجْزِ وَاغْتِنَامُ سِنِّ الصِّبَا وَالشَّبَابِ امْتِثَالًا لِلْأَمْرِ بِاسْتِبَاقِ الْخَيْرَاتِ كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ﴾[البقرة:١٤٨].

وَأَيَّامَ الْحَدَاثَةِ فَاغْتَنِمْهَا ... أَلَا إِنَّ الْحَدَاثَةَ لَا تَدُومُ

قَالَ أَحْمَدُ رَحِمَهُ اللَّهُ: مَا شَبَّهْتُ الشَّبَابَ إِلَّا بِشَيْءٍ كَانَ فِي كُمِّي فَسَقَطَ.

وَالْعِلْمُ فِي سِنِّ الشَّبَابِ أَسْرَعُ إِلَى النَّفْسِ وَأَقْوَىٰ تَعَلُّقًا وَلُصُوقًا.

قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: الْعِلْمُ فِي الصِّغَرِ كَالنَّقْشِ فِي الْحَجَرِ.

فَقُوَّةُ بَقَاءِ الْعِلْمِ فِي الصِّغَرِ كَقُوَّةِ بَقَاءِ النَّقْشِ فِي الْحَجَرِ، فَمَنِ اغْتَنَمَ شَبَابَهُ نَالَ إِرَبَهُ، وَحَمِدَ عِنْدَ مَشِيبِهِ سُرَاهُ.

أَلَا اغْتَنِمْ سِنَّ الشَّبَابِ يَا فَتَىٰ ... عِنْدَ الْمَشِيبِ يَحْمَدُ الْقَوْمُ السُّرَىٰ

وَأَضَرُّ شَيْءٍ عَلَى الشَّبَابِ التَّسْوِيفُ وَطُولُ الْأَمَلِ فَيُسَوِّفُ أَحَدُهُم وَيَرْكَبُ بَحْرَ الْأَمَانِيِّ وَيَشْتَغِلُ بِأَحْلَامِ الْيَقَظَةِ، وَيُحَدِّثُ نَفْسَهُ أَنَّ الْأَيَّامَ الْمُسْتَقْبَلَةَ سَتَفْرُغُ لَهُ مِنَ الشَّوَاغِلِ وَتَصْفُو مِنَ الْمُكَدِّرَاتِ وَالْعَوَائِقِ.

وَالْحَالُ الْمَنْظُورَةُ: أَنَّ مَنْ كَبُرَتْ سِنُّهُ كَثُرَتْ شَوَاغِلُهُ وَعَظُمَتْ قَوَاطِعُهُ مَعَ ضَعْفِ الْجِسْمِ وَوَهَنِ الْقُوَىٰ.

وَلَنْ تُدْرِكَ الْغَايَاتِ الْعُظْمَىٰ بِالتَّلَهُّفِ وَالتَّرَجِّي وَالتَّمَنِّي.

وَلَسْتُ بِمُدْرِكٍ مَا فَاتَ مِنِّي ... بِـ«لَهْفَ» وَلَا بِـ«لَيْتَ» وَلَا «لَوْ أَنِّي»

وَلَا يُتَوَهَّمُ مِمَّا سَبَقَ أَنَّ الْكَبِيرَ لَا يَتَعَلَّمُ؛ بَلْ هَؤُلَاءِ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ تَعَلَّمُوا كِبَارًا، ذَكَرَهُ الْبُخَارِي رَحِمَهُ اللَّهُ فِي كِتَابِ الْعِلْمِ مِن «صَحِيحِهِ» وَإِنَّمَا يَعْسُرُ التَّعَلُّمُ فِي الْكِبَرِ كَمَا بَيَّنَهُ الْمَاوَرْدِيّ فِي «أَدَبِ الدُّنْيَا وَالدِّينِ» لِكَثْرَةِ الشَّوَاغِلِ وَغَلَبَةِ الْقَوَاطِعِ وَتَكَاثُرِ الْعَلَائِقِ؛ فَمَنْ قَدِرَ عَلَىٰ دَفْعِهَا عَنْ نَفْسِهِ أَدْرَكَ الْعِلْمَ.

وَقَدْ وَقَعَ هٰذَا لِجَمَاعَةٍ مِنَ النُّبَلَاءِ طَلَبُوا الْعِلْمَ كِبَارًا فَأَدْرَكُوا مِنْهُ قَدْرًا عَظِيمًا مِنْهُم الْقَفَّالُ الشَّافِعِيُّ

رَحِمَهُ اللَّهُ.

ذكر المصنف وفقه الله: (الْمَعْقِد السَّابِع) من معاقد تعظيم العلم: وهـو (الْمُبَـادَرَةُ إِلَـى تَحْصِـيلِهِ) أي: المسارعة إلىٰ تلقِّيه، ويكون ذلك بما أرشد إليه بقوله: (وَاغْتِنَامُ سِنِّ الصِّبَا وَالشَّبَابِ) لأن العمـر زهرة فإذا اغتنم المرء زهرة عمره أثمرت، وإذا لم يغتنمها ذبلَت.

ومما تُثمر به زهرة العلم: المبادرة إلىٰ تحصيل العلم بأن يسابق إليه، ويبدأ فيه صغيرًا.

وذكر قول الشاعر:

وَأَيَّـــامَ الْحَدَاثَـــةِ فَاغْتَنِمْهَـــا ... أَلَا إِنَّ الْحَدَاثَـــــــةَ لَا تَـــــــدُومُ

وأتبعه بقول أحمد: (مَا شَبَّهْتُ الشَّبَابَ إِلَّا بِشَيْءٍ كَانَ فِي كُمِّي فَسَقَطَ) أي: هو سريع التقضي.

ثم ذكر أن (وَالْعِلْمُ فِي سِنِّ الشَّبَابِ أَسْرَعُ إِلَىٰ النَّفْسِ وَأَقْوَىٰ تَعَلُّقًا وَلُصُوقًا) فمَنْ بادر العلـم في سـن الشباب قوي العلمُ في نفسه، وثبت كقوة بقاء النّقش في الحجر، (فَمَنِ اغْتَنَمَ شَبَابَهُ نَالَ إِرَبَهُ، وَحَمِدَ عِنْدَ مَشِيبِهِ سُرَاهُ.) كما قلتُ في بيت يتيم:

أَلَا اغْتَـنِمْ سِـنَّ الشَّـبَابِ يَـا فَتَـىٰ ... عِنْدَ الْـمَشِيبِ يَحْمَدُ الْقَوْمُ السُّرَىٰ

ثم ذكر مما يضر الشباب كثيرًا في أخذه العلم وهو التسويف، والتأميل؛ أي: التأجيـل برجـاء أن يقـع ذلك فيما يُستقبَل فيقول: سوف أفعل، وسوف أفعـل، حتـىٰ يمضـي زمانـه، ويؤمـل أن يـدرك في الأيـام المستقبلة ما يكون فراغًا له، وحاله كما قال: (فَيُسَوِّفُ أَحَدُهُم وَيَرْكَبُ بَحْرَ الْأَمَانِيّ وَيَشْتَغِلُ بِأَحْلَامِ الْيَقَظَةِ)، وأحلام اليقظة تركيب يراد به ما لا حقيقة له.

ثم ذكر ما عليه الخلق في (الْـحَالِ الْـمَنْظُورَة)، أي: في الحـال المشـاهدة في واقـع النـاس، (أَنَّ مَـنْ كَبُرَتْ سِنُّهُ كَثُرَتْ شَوَاغِلُهُ وَعَظُمَتْ قَوَاطِعُهُ مَعَ ضَعْفِ الْجِسْمِ وَوَهَنِ الْقُوَىٰ.)؛ فـإذا اسـتقبلت أيامًـا مـن عمرك فإنك تستقبل شغلًا وقطعًا أكثر مما أنت فيه الآن.

ثم ذكر أنه (لَا يُتَوَهَّمُ مِمَّا سَبَقَ أَنَّ الْكَبِيرَ لَا يَتَعَلَّمُ)؛ بل التعلم في الكبر ممكن، فإن مَـنْ طلـب العلـم كبيرًا له حالان:

أولاهما: طلبه مع التَّقلُّل من الشَّواغل، ومدافعة العوائق، وقطع العلائق؛ فيُرجىٰ لـه إدراكُـه وبلـوغ بُغيته منه.

وثانيهما: طلبُه مع الاستسلام للـواردات مـن الشَّـواغل والعلائـق والعوائق؛ فيعسـر عليـه إدراكـه

وإحراز أمله منه.

فالكبير إذا تقلل من شواغله ودافع العوائق التي تعرض في طريق العلم وحسم العلائق التي تجذبه إلىٰ غيره أمكنه أن يطلب.

وفي القديم والحديث مَنْ طلب العلم كبيرًا فصار فيه مشارًا إليه بالتقدم.

الْمَعْقِدُ الثَّامِنُ

لُزُومُ التَّأَنِّي فِي طَلَبِهِ وَتَرْكُ الْعَجَلَةِ

فَإِنَّ تَحْصِيلَ الْعِلْمِ لَا يَكُونُ جُمْلَةً وَاحِدَةً إِذِ الْقَلْبُ يَضْعُفُ عَنْ ذَلِكَ، وَإِنَّ لِلْعِلْمِ فِيهِ ثِقَلًا كَثِقَلِ الْحَجَرِ فِي يَدِ حَامِلِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥﴾ [الْمُزَّمِّل] أَيْ: الْقُرْآن، وَإِذَا كَانَ هٰذَا وَصْفُ الْقُرْآنِ الْمُيَسَّرِ كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾[الْقَمَر:١٧] فَمَا الظَّنُّ بِغَيْرِهِ مِنَ الْعُلُومِ، وَقَدْ وَقَعَ تَنْزِيلُ الْقُرْآنِ رِعَايَةً لِهٰذَا الْأَمْرِ مُنَجَّمًا مُفَرَّقًا بِاعْتِبَارِ الْحَوَادِثِ وَالنَّوَازِلِ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ۝٣٢﴾ [الْفُرْقَان].

وَهٰذِهِ الْآيَةُ حُجَّةٌ فِي لُزُومِ التَّأَنِّي فِي طَلَبِ الْعِلْمِ وَالتَّدَرُّجِ فِيهِ وَتَرْكِ الْعَجَلَةِ كَمَا ذَكَرَهُ الْخَطِيبُ الْبَغْدَادِيُّ فِي «الْفَقِيهِ وَالْمُتَفَقِّهِ» وَالرَّاغِبُ الْأَصْفَهَانِيُّ فِي مُقَدِّمَةِ «جَامِعِ التَّفْسِيرِ».

وَمِنْ شِعْرِ ابْنِ النَّحَّاسِ الْحَلَبِيِّ قَوْلُهُ رَحِمَهُ اللهُ:

الْيَوْمَ شَيْءٌ وَغَدًا مِثْلُهُ ... مِنْ نُخَبِ الْعِلْمِ الَّتِي تُلْتَقَطْ
يُحَصِّلُ الْمَرْءُ بِهَا حِكْمَةً ... وَإِنَّمَا السَّيْلُ اجْتِمَاعُ النُّقَطْ

قَالَ شُعْبَةُ بْنُ الْحَجَّاجِ: اخْتَلَفْتُ إِلَىٰ عَمْرِو بْنِ دِينَارٍ خَمْسِمِائَةِ مَرَّةٍ وَمَا سَمِعْتُ مِنْهُ إِلَّا مِائَةَ حَدِيثٍ، فِي كُلِّ خَمْسَةِ مَجَالِسَ حَدِيثٌ.

وَقَالَ حَمَّادُ بْنُ أَبِي سُلَيْمَانَ لِتِلْمِيذٍ لَهُ: تَعَلَّمْ كُلَّ يَوْمٍ ثَلَاثَ مَسَائِلَ وَلَا تَزِدْ عَلَيْهَا شَيْئًا.

وَمُقْتَضَىٰ لُزُومُ التَّأَنِّي وَالتَّدَرُّجُ الْبَدَاءَةُ بِالْمُتُونِ الْقِصَارِ الْمُصَنَّفَةِ فِي فُنُونِ الْعِلْمِ حِفْظًا وَاسْتِشْرَاحًا وَالْمَيْلُ عَنْ مُطَالَعَةِ الْمُطَوَّلَاتِ الَّتِي لَمْ يَرْتَفِعِ الطَّالِبُ بَعْدُ إِلَيْهَا.

وَمَنْ تَعَرَّضَ لِلنَّظَرِ فِي الْمُطَوَّلَاتِ فَقَدْ يَجْنِي عَلَىٰ دِينِهِ، وَتَجَاوُزُ الِاعْتِدَالِ فِي الْعِلْمِ رُبَّمَا أَدَّىٰ إِلَىٰ تَضْيِيعِهِ، وَمِنْ بَدَائِعِ الْحِكَمِ قَوْلُ عَبْدِ الْكَرِيمِ الرِّفَاعِيِّ -أَحَدِ شُيُوخِ الْعِلْمِ بِدِمَشْقَ الشَّامِ فِي الْقَرْنِ الْمَاضِي-: طَعَامُ الْكِبَارِ سُمُّ الصِّغَارِ.

وَصَدَقَ فَإِنَّ الرَّضِيعَ إِذَا تَنَاوَلَ طَعَامَ الْكِبَارِ مَهْمَا لَذَّ وَطَابَ أَهْلَكَهُ وَأَعْطَبَهُ، وَمِثْلُهُ مَنْ يَتَنَاوَلُ الْمَسَائِلَ الْكِبَارَ مِنَ الْمُطَوَّلَاتِ يُوقِفُ نَفْسَهُ مَعَ ضَعْفِ الْآلَةِ عَلَىٰ خِلَافِ الْعُلَمَاءِ وَتَعَدُّدِ مَذَاهِبِهِمِ فِي الْمَنْقُولِ وَالْمَعْقُولِ.

ذكر المصنِّف وفقه الله (الْمَعْقِدُ الثَّامِنُ) من معاقد تعظيم العلم وهو: (لُزُومُ التَّأَنِّي فِي طَلَبِهِ وَتَرْكُ الْعَجَلَةِ) بالتدرج فيه والترقي شيئًا فشيئًا، وعلله بأن العلم لا يحصل جملة واحدة، لأن القلب يضعف عن ذلك؛ فإن له ثقلًا يجده آخذه كما يجده حامل الحجارة الثقيلة في بدنه، فلابد من الترفُّق في تحصيل العلم بالنفس.

واتفق ذلك في القرآن الكريم، فإنه نزل منجّمًا- أي: مفرقًا- باعتبار الحوادث والنوازل، والنَّجم: هو الوقت المضروب، فقولهم: أُنزل القرآن منجمًا، أي: في أوقات معينة مقدرة.

ثم ذكر قول الله تعالىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ﴾ [الفرقان:٣٢] وأن (هَذِهِ الْآيَةُ حُجَّةٌ فِي لُزُومِ التَّأَنِّي فِي طَلَبِ الْعِلْمِ وَالتَّدَرُّجِ فِيهِ وَتَرْكِ الْعَجَلَةِ .. ذَكَرَهُ الْخَطِيبُ الْبَغْدَادِيُّ .. وَالرَّاغِبُ الْأَصْفَهَانِيُّ).

ثم ذكر من الشعر والنثر ما يبين عن هذا المعنىٰ.

ثم بيّن (مُقْتَضَىٰ لُزُومِ التَّأَنِّي وَالتَّدَرُّجِ) وأنه يكون بأمرين:

أحدهما: (الْبَدَاءَةُ بِالْـمُتُونِ الْقِصَارِ الْـمُصَنَّفَةِ فِي فُنُونِ الْعِلْمِ حِفْظًا وَاسْتِشْرَاحًا)

والآخر: (الْمَيْلُ عَنْ مُطَالَعَةِ الْـمُطَوَّلَاتِ الَّتِي لَم يَرْتَفِعِ الطَّالِبُ بَعْدُ إِلَيْهَا).

فالمتأني في أخذ العلم يلزم هذين الأصلين، فيبتدئ بالمتون القصار في أبواب العلم وأنواعه حفظًا واستشراحًا، ويعزل نفسه عن مطالعة المطولات التي لم يرتفع بعد إليها؛ مما يحتاج إلىٰ آلة عظيمة في الفهم، فإن من ابتدأ في العلم ولا آلة له وتعرض للنظر في المطولات ربّما جنىٰ علىٰ دينه وتجاوز الاعتدال في العلم المؤدِّي إلىٰ تضييعه.

ثم ذكر كلمةً تُنسب إلىٰ عبد الكريم الرفاعي أنه كان يقول: (طَعَامُ الْكِبَارِ سُمُّ الصِّغَارِ)؛ أي ما يتناوله الكبير طعامًا يتقوّىٰ به يكون للصغير سُمًا، كما لو قُدِّر أن الرَّضيع أُعطي من اللحم ما لَذَّ وطاب، فإنه يُعدم صحته وربما قتله، فكذلك مَنْ تعاطىٰ العلوم ابتداءً ولا آلة له في مطوّلاتها، فربّما أضرّ في نفسه؛ هذا معنىٰ قوله: (طَعَامُ الْكِبَارِ سُمُّ الصِّغَارِ).

ومن الناس مَنْ يعدل بهذه الكلمة عن وجهها المراد منها، فيقول: طعام الكبار سم الصغار لصرف المبتدئين عن مجالس العلماء الكبار علمًا وسنًّا، زعمًا أن أخذ المبتدئ عنهم لا يصلح له، ولو درَّسوا

المتون المختصرة التي يُدرَّج بها طلاب العلم، وهٰذا معنىٰ لا يصحّ ولا يريده أهل العلم إذا ذكروا هذه الكلمة (طَعَامُ الْكِبَارِ سُمُّ الصِّغَارِ)، وإنما يدَّعيه قُطَّاع الطريق، الذين يصرفون الناس عن كبار علمائهم، فصارت هذه الكلمة (طَعَامُ الْكِبَارِ سُمُّ الصِّغَارِ) تجيء علىٰ معنيين:

أحدهما: مراعاة التدرج في العلم، وهذا صحيح.

والآخر: عدم التلقي عن العلماء الكبار علمًا وسنًّا، وهذا معنىٰ فاسد.

والمقرر هنا من لزوم التأني وترك العجلة لا يبطل ترتيب برنامج مهمات العلم علىٰ هذا الوضع، ولا ينقضه؛ لأن مقصوده: جعْله استفتاحًا للمبتدئين بتحبيبهم في العلم، وتذكيرًا للمتوسطين باسترجاع معلوماتهم، وتحقيقًا للمنتهين بتمييز مسائل العلم في مواقعها من القوة والضعف.

ولا يُراد منه أن يكون غاية المراد وروضة المرتاد، وأنه يكفي في طلب العلم، فمَنْ توَهَّم أن حبس نفسه هذه الأيام فقط علىٰ أخذ هذه المتون دون تسريح النفس فيها بعد ذلك مع الأيام والليالي ليرسَخ علمه ويثبت فهمُه فإنه يضيع عليه مراده من الاستفادة من هذه المجالس؛ لكن مَنْ جعلها مفتاحًا له وسلّمًا لمواصلة الطريق، وإعادة لإمرار هذه المسائل عليه فإنه ينتفع انتفاعًا كثيرًا.

الْـمَعْقِدُ التَّاسِعُ

الصَّبْرُ فِي الْعِلْم تَحمُّلًا وَأَدَاءً

إِذْ كُلُّ جَلِيلٍ مِنَ الْأُمُورِ لَا يُدْرَكُ إِلَّا بِالصَّبْرِ، وَأَعْظَمُ شَيْءٍ تَتَحَمَّلُ بِهِ النَّفْسُ طَلَبُ الْـمَعَالِي: تَصْبِيرُهَا عَلَيْه، وَلَهٰذَا كَانَ الصَّبْرُ وَالْـمُصَابَرَةُ مَأْمُورًا بِهِمَا لِتَحْصِيلِ أَصْلِ الإِيمَانِ تَارَةً، وَلِتَحْصِيلِ كَمَالِهِ تَارَةً أُخْرَى؛ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ ﴾[آل عِمْرَان: ٢٠٠]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الكَهْف:٢٨].

قَالَ يَحْيَىٰ بْنُ أَبِي كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِ هٰذِه الْآيَةِ: هِيَ مَجَالِسُ الْفِقْهِ، وَلَنْ يُحَصِّلَ أَحَدٌ الْعِلْمَ إِلَّا بالصَّبْرِ.

قَالَ يَحْيَىٰ بْنُ أَبِي كَثِيرٍ أَيْضًا: لَا يُسْتَطَاعُ الْعِلْمُ بِرَاحَةِ الْجِسْمِ.

فَبِالصَّبْرِ يُخْرَجُ مِنْ مَعَرَّةِ الْجَهْلِ.

قَالَ الْأَصْمَعِيُّ: مَنْ لَمْ يَحْتَمِلْ ذُلَّ التَّعْلِيمِ سَاعَةً بَقِيَ فِي ذُلِّ الْجَهْلِ أَبَدًا.

وَبِهِ تُدْرَكُ لَذَّةُ الْعِلْم.

قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: مَنْ لَمْ يَحْتَمِلْ أَلَمَ التَّعْلِيمِ لَمْ يَذُقْ لَذَّةَ الْعِلْمِ.

وَلَابُدَّ دُونَ الشَّهْدِ مِنْ سُمِّ لَسْعَةٍ.

وَكَانَ يُقَالُ: مَنْ لَمْ يَرْكَبِ الْـمَصَاعِبَ لَمْ يَنَلِ الرَّغَائِبَ.

وَصَبْرُ الْعِلْم نَوْعَانِ:

أَحَدُهُمَا: صَبْرٌ فِي تَحَمُّلِهِ وَأَخْذِه؛ فَالْحِفْظُ يَحْتَاجُ إِلَىٰ صَبْرٍ، وَالْفَهْمُ يَحْتَاجُ إِلَىٰ صَبْرٍ، وَحُضُورُ مَجَالِسِ الْعِلْمِ يَحْتَاجُ إِلَىٰ صَبْرٍ، وَرِعَايَةُ حَقِّ الشَّيْخِ تَحْتَاجُ إِلَىٰ صَبْرٍ.

وَالنَّوْعُ الثَّانِي: صَبْرٌ فِي أَدَائِه وَبَثِّه وَتَبْلِيغِهِ إِلَىٰ أَهْلِهِ، فَالْجُلُوسُ لِلْمُتَعَلِّمِينَ يَحْتَاجُ إِلَىٰ صَبْرٍ، وَإِفْهَامُهُمْ يَحْتَاجُ إِلَىٰ صَبْرٍ، وَاحْتِمَالُ زَلَّاتِهِمْ يَحْتَاجُ إِلَىٰ صَبْرٍ.

وَفَوْقَ هَذَيْنِ النَّوْعَيْنِ مِنْ صَبْرِ الْعِلْمِ الصَّبْرُ عَلَىٰ الصَّبْرِ فِيهِمَا وَالثَّبَاتُ عَلَيْهِمَا.

لِكُلٍّ إِلَىٰ شَأْوِ الْعُلَا وَثَبَاتُ … وَلَكِنْ عَزِيزٌ فِي الرِّجَالِ ثَبَاتُ

وَمَنْ يَلْزَمِ الصَّبْرَ يَظْفَرْ بِالرُّشْدِ.

قَالَ أَبُو يَعْلَىٰ الْـمَوْصِلِيُّ الْـمُحَدِّثُ:

إِنِّي رَأَيْتُ وَفِي الْأَيَّامِ تَجْرِبَةٌ … لِلصَّبْرِ عَاقِبَةً مَحْمُودَةَ الْأَثَرِ

وَقَلَّ مَنْ جَدَّ فِي أَمْرٍ تَطَلَّبَهُ   واسْتَصْحَبَ الصَّبْرَ إِلَّا فَازَ بِالظَّفَر.

ذكر المصنف وفقه الله (**الْمَعْقِدُ التَّاسِع**) من معاقد تعظيم العلم: وهو (**الصَّبْرُ فِي الْعِلْمِ تَحَمُّلاً وَأَدَاءً**). والمراد بالتحمّل: التلقي، والمراد بالأداء: البذل.

فالمرء مفتقر إلىٰ الصبر في العلم في طرفيه أخذًا وجمعًا له ثُم بثًّا ونشرًا لأن كل جليل من الأمور لا يُنال إلا بالصبر، ولهذا أُمر في آي كثيرة بالصبر والمصابرة؛ لتحصيل أصل الإيمان تارةً، وتحصيل كماله تارةً أخرىٰ.

قال الله تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ ﴾[آل عمران:٢٠٠]، فأمر بالصبر، ثم أمر بالمصابرة وهي مفاعلة من الصبر عند وجود المنازعة، فالمرء إذا نُزِع في الشيء ثم حمل نفسه وحبسها عليه صار مصابرًا.

ثم ذكر قوله تعالىٰ: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥ ﴾ [الكهف:٢٨].وأن يحيىٰ بن أبي كثير قال في تفسيرها: (هِيَ مَجَالِسُ الْفِقْهِ)، فيحتاج المرء إلىٰ وقف نفسه وحبسها عليها.

ثم ذكر أن العلم لا يحصل إلا بالصبر، وذكر من منفعته في العلم أمران:

أحدهما: أنه يُخرَج به من مَعَرَّة الجهل، فعيب الجهالة لا يخرج منه العبد إلا إذا صبر.

والآخر: أنه تُدرَك به لذة العلم، فإن ذوق حلاوة العلم لا يكون إلا بالصبر.

(وَلَابُدَّ دُونَ الشَّهْدِ مِنْ سُمِّ لَسْعَةٍ.)، والشَّهد بفتح الشين وضمها: هو العسل في الشمع.

وإذا أراد أحد أن يمد يده إلىٰ العسل فيلتقطه مع شمعه من بيوت النحل فإن دون ذلك إبر النحل التي تلسعه.

وكذلك معالي الأمور دونها وخزات الألم، فلا يتهيأ لها إلا مَنْ صبر نفسه وصابرها في ذلك.

ثم ذكر أن (صَبرَ الْعِلْمِ نَوْعَانِ:

أَحَدُهُمَا: صَبْرٌ فِي تَحَمُّلِهِ وَأَخْذِهِ)، أي: في تلقيه.(فَالْحِفْظُ يَحْتَاجُ إِلَىٰ صَبْرٍ، وَالْفَهْمُ يَحْتَاجُ إِلَىٰ صَبْرٍ، وَحُضُورُ مَجَالِسِ الْعِلْمِ يَحْتَاجُ إِلَىٰ صَبْرٍ)، فإنها ربما طالت فافتقر ملتمس العلم أن يصبر نفسه عليها، وهو يبتلي نفسه ويختبرها في امتحانها؛ هل هو مُهيّأ للصبر علىٰ العلم أم لا، فإذا وجد منها وهنًا ساقها

بشوق الرغبة في الخير والأجر عند الله ﷻ فصبَّرها علىٰ مجالس العلم وإن طالت، (وَرِعَايَةُ حَقِّ الشَّيْخِ تَحْتَاجُ إِلَى صَبْرٍ).

(وَالنَّوْعُ الثَّانِي: صَبْرٌ فِي أَدَائِهِ وَبَثِّهِ وَتَبْلِيغِهِ إِلَىٰ أَهْلِهِ)، أي: نشره في الناس، (فَالْجُلُوسُ لِلْمُتَعَلِّمِينَ يَحْتَاجُ إِلَىٰ صَبْرٍ)، فإن الجلوس للمتعلمين له لذة في مبدأ الأمر، فإذا طال شق علىٰ النفس فيحتاج العبد إلىٰ تصبير نفسه أن يجلس للمتعلمين، ومَنْ عانىٰ التعليم والتدريس علم صدْق ذلك، فإنه يجد لذاذة في مبتدأ أمره، ثم إذا عانىٰ التدريس مدّة وجد أن الصبر للمتعلّمين بالبقاء معهم يحتاج إلىٰ صبر كثير.

ثم قال: (وَإِفْهَامُهُمْ يَحْتَاجُ إِلَىٰ صَبْرٍ) فإنه ربما أراد أن يبيِّن لهم معنىٰ فلم يفهموه، فيحتاج إلىٰ أن يعيده مرة وأخرىٰ كهدي النبي ﷺ فإنه (كان يعيد الحديث ثلاثًا ليُفهَم عنه). متفق عليه.

ومن الصبر عليهم: (احْتِمَالُ زَلَّاتِهِمْ)؛ فإنه (يَحْتَاجُ إِلَىٰ صَبْرٍ)، فإن الزلة من جنس الآدمي، فإن الآدمي له حظ من الخطيئة والسيئة، ومن سيئات طلاب العلم: الزلات التي تكون معهم مع أشياخهم، فالعارف من المعلّمين بحال النفس البشرية يعلم أن من المأمور به شرعًا في حقه أن يصبر نفسه علىٰ زلات هؤلاء المتعلمين، وأن يرحمهم.

وإذا بَصُرَ المرء بما كان عليه أبو القاسم ﷺ من الصَّبر علىٰ الناس حتىٰ كان أحدُهم يأخذ بجلباب النبي ﷺ ويشد رداءه عليه حتىٰ يجد النبي ﷺ حزّ ردائه في بدنه! فانظر إلىٰ عظيم صبره ﷺ، واعتبر ما تلقاه أنت فيمَنْ تعلمه من الناس أنهم لا يبلغوا ولله الحمد هذا المبلغ.

ثم قال: (وَفَوْقَ هَذَيْنِ النَّوْعَيْنِ مِنْ صَبْرِ الْعِلْمِ الصَّبْرُ عَلَىٰ الصَّبْرِ فِيهِمَا وَالثَّبَاتُ عَلَيْهِمَا.

لِكُلِّ إِلَىٰ شَأْوِ الْعُلَا وَثَبَاتُ ... وَلَكِنْ عَزِيزٌ فِي الرِّجَالِ ثَبَاتُ)

أي: لكل إلىٰ غاية العلا، فالشاو: هو الغاية، الوثبات: جمع وثبة، وهي: القفزة.

والمعنىٰ: أنه لكل أحد إلىٰ غايات العلا قفزات في طِلابها، ولكن يعز في الرجال الثبات علىٰ مطلوبهم.

وإلىٰ ذلك أشرت بقولي في «منظومة الهداية»:

إن الثبات في الرجال عزّ ... ويغنم الرجال منه العِزّ

إن الثبات في الرجال عزّ: يعني قلّ.

ثم قال: (وَمَنْ يَلْزَمِ الصَّبْرَ يَظْفَرْ بِالرُّشْـدِ): أي: يدرك الخير.

وذكر بيتين لأبي يعلىٰ الموصلي أنه قال:

إِنِّـي رَأَيْـتُ وَفِـي الْأَيَّـام تَجْرِبَـةٌ لِلصَّـبْر عَاقِبَـةً مَحْمُـودَةَ الْأَثَـرِ
وَقَـلَّ مَـنْ جَـدَّ فِـي أَمْـرِ تَطَلَّبَـهُ واسْتَصَحَبَ الصَّبْرَ إِلَّا فَـازَ بِـالظَّفَر.

(وَقَلَّ مَنْ جَدَّ فِي أَمْرٍ تَطَلَّبَهُ): أي: اجتهد في أمر يريده.

(واسْتَصَحَبَ الصَّبْرَ): يعني جعله مقارنًا له. (إِلَّا فَازَ بِالظَّفَر).

الْـمَعْقِدُ الْعَاشِرُ

مُلازَمَةُ آدَابِ الْعِلْمِ

قَال ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي كِتَابِه «مَدَارِجِ السَّالِكِين»: أَدَبُ الْـمَرْءِ عُنْوَانُ سَعَادَتِهِ وَفَلَاحِهِ، وَقِلَّةُ أَدَبِهِ عُنْـوَانُ شَقَاوَتِهِ وَبَوَارِهِ، فَمَا اسْتُجْلِبَ خَيْرُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ بِمِثْلِ الْأَدَبِ، وَلَا اسْتُجْلِبَ حِرْمَانُهُمَا بِمِثْلِ قِلَّةِ الْأَدَبِ.

وَالْـمَرْءُ لَا يَسْمُو بِغَيْرِ الْأَدَبِ ... وَإِنْ يَكُنْ ذَا حَسَبٍ وَنَسَبِ

وَإِنَّمَا يَصْلُحُ لِلْعِلْمِ مَنْ تَأَدَّبَ بِآدَابِهِ فِي نَفْسِهِ وَدَرْسِهِ وَمَعَ شَيْخِهِ وَقَرِينِهِ.

قَالَ يُوسُفُ بْنُ الْحُسَيْن: بِالْأَدَب تَفْهَمُ الْعِلْمَ.

لِأَنَّ الْـمُتَأَدِّبَ يُرَى أَهْلًا لِلْعِلْمِ فَيُبْذَلُ لَهُ، وَقَلِيلَ الْأَدَبِ يُعَزُّ الْعِلْمُ أَن يُضَيَّعَ عِنْدَه.

سَأَلَ رَجُلٌ الْبُقَاعِيَّ أَنْ يَقْرَأَ عَلَيْه، فَأَذِنَ لَهُ الْبُقَاعِيُّ، فَجَلَسَ الرَّجُلُ مُتَرَبِّعًا، فَامْتَنَعَ الْبُقَاعِيُّ مِنْ إِقْرَائِهِ، وَقَالَ لَهُ: أَنْتَ أَحْوَجُ إِلَىٰ الْأَدَبِ مِنْك إِلَىٰ الْعِلْمِ الَّذِي جِئْتَ تَطْلُبُهُ.

وَمِنْ هُنَا كَانَ السَّلَفُ -رَحِمَهُم الله- يَعْتَنُونَ بِتَعَلُّمِ الْأَدَبِ كَمَا يَعْتَنُونَ بِتَعَلُّمِ الْعِلْمِ.

قَالَ ابْنُ سِيرِينَ رَحِمَهُ اللَّهُ: كَانُوا يَتَعَلَّمُونَ الْـهَدْيَ كَمَا يَتَعَلَّمُونَ الْعِلْمَ.

بَلْ إِنَّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُقَدِّمُونَ تَعَلُّمَهُ عَلَى تَعَلُّمِ الْعِلْمِ.

قَال مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ لِفَتَىٰ مِن قُرَيْشٍ: يَا ابْنَ أَخِي تَعَلَّمِ الْأَدَبَ قَبْلَ أَنْ تَتَعَلَّمَ الْعِلْمَ.

وَكَانُوا يُظْهِرُونَ حَاجَتَهُمْ إِلَيْهِ.

قَال مَخْلَدُ بْنُ الْـحُسَيْنِ لِابْنِ الْـمُبَارَكِ يَوْمًا: نَحْنُ إِلَىٰ كَثِيرٍ مِنَ الْأَدَبِ أَحْوَجُ مِنَّا إِلَىٰ كَثِيرٍ مِن الْعِلْمِ.

وَكَانُوا يُوصُونَ بِه، وَيُرْشِدُونَ إِلَيْهِ.

قَال مَالِكٌ: كَانَتْ أُمِّي تُعَمِّمُنِي وَتَقُولُ لِي: اذْهَبْ إِلَىٰ رَبِيعَةَ -تَعْنِي ابْنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ فَقِيهَ أَهْلِ الْـمَدِينَةِ فِي زَمَنِهِ- فَتَعَلَّمْ مِنْ أَدَبِهِ قَبْلَ عِلْمِهِ.

وَإِنَّمَا حُرِمَ كَثِيرٌ مِن طَلَبَةِ الْعَصْرِ الْعِلْمَ بِتَضْيِيعِ الْأَدَبِ، فَتَرَىٰ أَحَدُهُمْ مُتَّكِئًا بِحَضْرَةِ شَيْخِهِ؛ بَلْ يَمُدُّ إِلَيْـهِ رِجْلَيْه، وَيَرْفَعُ صَوْتَهُ عِنْدَهُ، وَلَا يَمْتَنِعُ عَنِ إِجَابَةِ هَاتِفِهِ الْـجَوَّالِ أَوْ غَيْرِه، فَأَيُّ أَدَبٍ عِنْدَ هَـؤُلَاءِ يَنَـالُونَ بِـهِ الْعِلْمَ.

أَشْرَفَ اللَّيْثُ بْنُ سَعْد رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَىٰ أَصْحَابِ الْـحَدِيثِ فَرَأَىٰ مِنْهُمْ شَيْئًا كَأَنَّهُ كَرِهَهُ فَقَـالَ: مَـا هَـذَا؟ أَنْـتُمْ إِلَىٰ يَسِيرٍ مِنَ الْأَدَبِ، أَحْوَجُ مِنْكُمْ إِلَىٰ كَثِيرٍ مِنَ الْعِلْمِ.

فَمَاذَا يَقُولُ اللَّيْثُ لَوْ رَأَىٰ حَالَ كَثِيرٍ مِنْ طُلَّابِ الْعِلْمِ فِي هٰذَا الْعَصْرِ؟!

ذكر المصنف وفقه الله (الْمَعْقِد الْعَاشِر) من معاقد تعظيم العلم، وهو: (مُلَازَمَةُ آدَابِ الْعِلْمِ)، واستفتحه بكلام لابن القيم في «مدارج السالكين» فيه بيان أن (أَدَبَ الْمَرْءِ عُنْوَانُ سَعَادَتِهِ وَفَلَاحِهِ)، ووجه ذلك ما ذكره بعد، بأنه يُستجلَب به خير الدنيا والآخرة، فإذا تأدّب المرء سعُد وأفلح، لأنه يجلب لنفسه الخير الواقع في الدنيا والآخرة.

وذكر أيضًا أن قلة أدب المرء عنوان شقاوته وبواره، وبيّن وجهه بأن حرمان الخير في الدنيا والآخرة لم يُستجلَب في شيء مثل قلة الأدب، ثم ذكر الأول:

وَالْمَرْءُ لَا يَسْمُو بِغَيْرِ الْأَدَبِ وَإِنْ يَكُنْ ذَا حَسَبٍ وَنَسَبِ

ثم قال: (وَإِنَّمَا يَصْلُحُ لِلْعِلْمِ مَنْ تَأَدَّبَ بِآدَابِهِ فِي نَفْسِهِ وَدَرْسِهِ وَمَعَ شَيْخِهِ وَقَرِينِهِ) أي: لا يكون من أهل العلم إلا المتأدب فيه.

وذكر قول يوسف ابن الحسين: (بِالْأَدَبِ تَفْهَمُ الْعِلْمَ).

وبيّن وجهه فقال: (لِأَنَّ الْمُتَأَدِّبَ يُرَى أَهْلًا لِلْعِلْمِ فَيُبْذَلُ لَهُ، وَقَلِيلَ الْأَدَبِ يُعَزُّ الْعِلْمُ أَنْ يُضَيَّعَ عِنْدَهُ) فإن المعلّم إذا رأى المتعلم متأدبًا اجتهد في تفهيمه، وكابَد مشقَّة ما يجد منه، فيكون المتعلّم استجلب الفهم بتأدبه مع شيخه حتى سقاه العلم صَبًّا.

ويُراد بها أيضًا أن الله عَزَّوَجَلَّ يجعل للعبد من المعونة مع الأدب ما لا يحرزه مع عدمه، فإذا تأدب المرء بآداب العلم أعانه الله عَزَّوَجَلَّ على أخذه، وبضد ذلك يُمنع العبد من العلم؛ فإذا كان قليل الأدب عديم المروءة في العلم فإن الله عَزَّوَجَلَّ يُعِزُّ ميراث النبوة أن يكون عند عبد غير متأدب.

وإذا رأيت شيئًا من العلم عند أحد من الناس مِمَّنْ سُلِبَ الأدب فاعلم أن عنده صورة العلم لا حقيقته، فحقيقة العلم التي يجدها المرء من لذّة العلم والأنس بالله، والاستغناء عن الناس لا يجده سيئ الأدب، وإن وُجدت عنه صورة العلم من المسائل التي يحفظها ويعرفها.

ثم ذكر أن السلف كانوا يهتمون بتعلم الأدب كما يهتمون بتعلم العلم؛ (بَلْ إِنَّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُقَدِّمُونَ تَعَلُّمَهُ عَلَى تَعَلُّمِ الْعِلْمِ)، (وَكَانُوا يُظْهِرُونَ حَاجَتَهُمْ إِلَيْهِ)، وكل هذه المشاهد الثلاثة تدل على شدة الحاجة إلى الأدب أنه بلغ من شدة الحاجة إليه أن يُهتَم بتعلم الأدب كما يُهتَمُّ بتعلم العلم؛ بل بلغ منها

أن يُقدَّم تعلمه علىٰ تعلم العلم؛ بل بلغ منها أن يُظهروا شديد افتقارهم إلىٰ الأدب كما (قَالَ مَخْلَدُ بْنُ الْحُسَيْنِ لِابْنِ الْمُبَارَكِ يَوْمًا: نَحْنُ إِلَىٰ كَثِيرٍ مِنَ الْأَدَبِ أَحْوَجُ مِنَّا إِلَىٰ كَثِيرٍ مِنَ الْعِلْمِ)؛ أي: نحتاج إلىٰ كثير من الأدب أكثر من حاجتنا إلىٰ كثير من العلم.

وهٰذه الكلمة خرجت من مخلد علىٰ وجه الإزراء علىٰ النفس ببيان نقصها عن الكمال في الأدب والاحتياج إلىٰ كثير منه، وهذا حال كُمَّل السلف رحمهم الله، كانوا يزرون أنفسهم ويعيبونها في نقصها عن إدراك الكمال.

وكلمة (نحن) تقع في ثلاث مواقع:

أولها: أن تقع خبرًا لبيان حقيقة الأمر، كقول الصحابة رضي الله عنهم: نحن الذين بايعوا محمدًا؛ فإنهم أخبروا بهذه الكلمة عن حالهم، فمتىٰ أخبر المرء بها عن حاله ساغ، كأن يكون جمعٌ يذكرون هذا عن أنفسهم، أما إخبار المرء عن نفسه وحده بها فإنه مما يُعاب لأنه خلاف حقيقة المرء، فإن المرء إذا قال: نحن حفظنا، ونحن قرأنا، ونحن سافرنا، يريد الخبر عن نفسه؛ كان هذا معيبًا عند أهل المعرفة بالله وبشرعه؛ لأن المرء ينظر إلىٰ نفسه دومًا بعين النقص.

وثانيها: أن تقع موقع الإزراء علىٰ النفس لحثّها علىٰ طلب الكمال، كالوارد في كلمة مخلد بن الحسين فإنه أراد عيب نفسه والإزراء عليها لتترقّىٰ إلىٰ الكمال فأخبر بهذه الكلمة.

وثالثها: أن تقع علىٰ وجه البطر والعُجب بالنفس، وهذه إحدىٰ المُهلكات العظام.

ثم ذكر أن السلف كانوا يوصون بالأدب ويرشدون إليه، كما قالت أم مالك له: (اذْهَبْ إِلَىٰ رَبِيعَةَ فَتَعَلَّمْ مِنْ أَدَبِهِ قَبْلَ عِلْمِهِ).

ثم ذكر المصنف أن هذه الآبدة وهي تضييع الأدب هي السبب الأعظم في حرمان كثير من طلبة العصر العلم؛ فتجد لهم رغبة في العلم وسعيًا في طلبه، لكن يمضي أحدهم مدة مديدة لم يدرك إلا شيئًا يسيرًا، وأعظم شيء يحول دون تحصيلهم العلم هو عدم ملازمتهم أدبه؛ بل وقوعهم في خلافه، كما قال: (فَتَرَىٰ أَحَدُهُمْ مُتَّكِئًا بِحَضْرَةِ شَيْخِهِ) لأن الاتكاء حظ المعظَّم، والمرء لا يعظم نفسه عند شيخ؛ بل يجلس جِلْسَة المستفيد، الراغب في الاستكثار من الخير.

وتجد أحدهم يمدّ إليه رجليه دون ضرورة ولا حاجة ملحة، وإنما مبالغةً في ترفيه النفس فتجده

يخفف عن نفسه بلا حاجة، ويجعلها في سعَة فيكون من سوء أدبه في ترفيه نفسه والتوسيع عليها أن يمدّ رجليه إلىٰ جهة شيخه، وإنّما يسوغ هذا إذا كان مريضًا، أو طال المجلس واحتاج إلىٰ أن يمدّها قليلًا ليردها ثانية، أمّا أن يحضر أحدهم المجلس كله فتجده يتكئ علىٰ عمود، ثم يرسل رجليه إلىٰ شيخه فاعلم أن مد رجليه إلىٰ شيخه حصل له من قبض العلم بقدر ما مدَّ، فهو مدّ وقُبِض عنه الخير؛ لأن ما قام به خلاف الأدب، والعلم لا ينفق فيه إلا متأدّب، فإن الله يُعزُّ دينه أن يكون عند قليل أدب.

ثم ذكر مما يخالف ذلك: رفع الصوت عنده، فتجد بعض الناس له جلبة في مجلس العلم، وكأن هذا المجلس مجلس أخلاط الخلق والعوام من مجامعهم في الأسواق ونحوها، ويغفل أن هذا المجلس هو ميراث النبي ﷺ الذي تركه، فالمجتمعون عليه مجتمعون علىٰ أمرٍ تركه النبي ﷺ بعده، فإن النبي ﷺ لم يورّث درهمًا ولا دينارًا وإنما ورَّث العلم، فإذا جلست في حِلَق العلم فاعلم أنك تجلس علىٰ قسمة ميراثه ﷺ، ومن سوء الأدب أن تكون هذه حالك.

وإذا كان هذا يُعاب في مجالس العلم كافّة فعيبه في المجالس التي تكون في المسجد النبوي أعظم وأعظم.

ثم ذكر من ذلك أن أحدَهم لا يمتنع عن إجابة هاتفه الجوال، أو غيره فتجده بلا حاجة داعية إذا ضُرب عليه اتصالٌ بالهاتف تكلم به في حلقة العلم وشيخه يتكلم، وكأن الشيخ الذي يجلس علىٰ الكرسي يتكلم إلىٰ هذه الأعمدة، وهذا غلطٌ؛ فإن الشيخ الذي يتكلم في العلم يتكلم إلىٰ كل واحدٍ منكم، فإنه لو أمسكَ أمسك عنه فلم يسمع شيئًا، فالحديث ليس موجّهًا إلىٰ فضاء واسع أو إلىٰ آحاد يجلسون في المقدمة؛ بل أولئك الجالسون في آخر المجلس لهم من الاعتناء بالبيان وتوجيه الكلام إليهم كما يكون لهؤلاء المتقدّمين؛ لكن الناس يتفاضلون في حظوظهم من إدراك مجلس العلم تقدُّمًا وتأخيرًا.

وإذا احتاج المرء إلىٰ الرد علىٰ الهاتف اتصالًا استأذن من شيخه، ثم ذهب وتكلم سريعًا ورجع، أو استعاض عن ذلك بما هيأه الله ﷻ من الرسائل شرط ألا تُشغله تلك الرسائل، فتكون في المجلس الطويل الرسالة والرسالتين، أما أن يكون طول مجلسه وهو يستعمل ذلك في الرسائل فأي حظ أدركه من الكلام الذي يُلقى عليه.

ثم قال بعد: (فَأَيُّ أَدَبٍ عِنْدَ هَؤُلَاءِ يَنَالُونَ بِهِ الْعِلْمَ) أي: هؤلاء المفارقون حال الأدب لن ينالوا

العلم.

ثم ذكر حالًا فيمَن تقدمنا وهي فينا آكد: إذ قال: (أَشْرَفَ اللَّيْثُ بْنُ سَعْدٍ ﷺ عَلَىٰ أَصْحَابِ الْحَدِيثِ) أي: طلاب العلم، فإن العلم في السلف هو الحديث، (فَرَأَىٰ مِنْهُمْ شَيْئًا كَأَنَّهُ كَرِهَهُ فَقَالَ: مَا هَذَا؟) أي: هذا الأمر الذي أنتم فيه- نُكْرَةً له- (أَنْتُمْ إِلَىٰ يَسِيرٍ مِنَ الْأَدَبِ، أَحْوَجُ مِنْكُمْ إِلَىٰ كَثِيرٍ مِنَ الْعِلْمِ.) أي: تفتقرون إلىٰ شيء قليل من الأدب ينفعكم أكثر مما تلتمسونه من العلم وترغبون فيه.

ثم قال المصنف: (فَمَاذَا يَقُولُ اللَّيْثُ لَوْ رَأَىٰ حَالَ كَثِيرٍ مِنْ طُلَّابِ الْعِلْمِ فِي هَذَا الْعَصْرِ؟!) أي: للمباينة بين حالنا وحالهم، فينبغي أن يجتهد طالب العلم في لزوم الآداب؛ لأن طلب العلم عبادة، ومن كمال أدائك هذه العبادة أن تكون علىٰ الحظ الأعلىٰ من متابعة الشريعة فيها، ومن متابعة الشريعة فيها التأدب بآدابها مما مضىٰ ذِكْر بعضه، ويُستقبَل ذِكْر بعضه فيما نستقبل من تتميم هذا الدرس بعد صلاة العصر بإذن الله تعالىٰ.

وهذا آخر هذا المجلس.

وأرشد في آخره إلىٰ أمور:

أولها: مَنْ لم يصب حظه من النُّسخ الجامعة للكتب المشروحة في هذا البرنامج فيمكنه أن يحصل علىٰ نسخة منها من مكتبة دار النصيحة الواقعة أمام البوابة الجنوبية للجامعة الإسلامية، فيذهب إليهم ويأخذ منهم نسخةً، وهم بحمد الله سيفتحون في صبيحة هذا اليوم من الساعة التاسعة إلىٰ الحادية عشرة صباحًا، وكذلك من الساعة الرابعة بعد العصر إلىٰ الساعة الثانية عشرة ليلًا، فمَنْ فاته أخذه فليذهب إليهم الآن بعد الدرس وليأخذه.

وثانيها: أنبه الإخوة أن من أدب حضور هذا المجلس ألا يحضر أحد بشرح سواء لي، أو لغيري، فإن انتفاعك بالمتن إنما يحصل بتجريدك إياه من كل ما يمنعك من فهمه، والشروح تحول بين المرء وفهمه المتن؛ لأنه يسترسل بالنظر فيها، فينشغل عما يُلقىٰ إليه.

وثالثها: احرصوا علىٰ الإتيان بالجزء الثاني في أوقات نعيّنها لقراءة بعض ما أُلحق في هذا الكتاب، ومن جملتها أن تحضروه معكم في المساء، فربّما نقرأ شيئًا من الملحقات بعد درس ثلاثة الأصول.

ورابعها: مَنْ كان له سؤال يتعلّق بالدرس أو غيره فإنه يكتبه في ورقة ويرسلها إلىٰ الإخوان

الجالسين في المقدّمة، أو يعطيها إياهم بعد الدرس، وسنعرضها إن شاء الله تعالىٰ في ميعادها.

والأمر الخامس: أنبه كل أحد إلىٰ أن يحتاط في إثبات ما سمعه وما فاته، فإذا عرض لك شيء فاتك لذهابك أو تأخرك فقيده لتستدركه إن أمكنك، أو تعرف ما فاتك منه.

وآخرها: أنبه الإخوان إلىٰ أنني لا أحب أن يلحقني أحد إلا أحدًا له فوت في كتاب فيقرؤه، وأما عدا ذلك فلا حاجة لي ولا لكم في أن تلحقوني، فكل يذهب إلىٰ شغله الذي ينتفع به، إلا أن يكون أحد يطلب إكمالًا لكتاب قرأه فلا بأس حينئذٍ.

وأشد ما يُمتنَع عنه الأسئلة، فالأسئلة تُكتَب في أوراق؛ لأنه ليس من تعظيم العلم السؤال مع شغل القلب بالذهاب والانصراف إلىٰ ما يريده المعلّم.

وهذا آخر هذا المجلس، والحمد لله رب العالمين، وصلىٰ الله وسلم علىٰ عبده ورسوله محمد وآله وصحبه أجمعين.

المجلس الثاني

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته...

الحمد لله الذي صيّر الدين مراتب ودرجات وجعل للعلم به أصولًا ومهمات، وأشهد أن لا إله إلا الله حقًّا، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صدقًا، اللّٰهمَّ صلِّ علىٰ محمد وعلىٰ آل محمد كما صليت علىٰ إبراهيم وعلىٰ آل إبراهيم إنَّك حميد مجيد، اللّٰهمَّ بارك علىٰ محمد وعلىٰ آل محمد كما باركت علىٰ إبراهيم وعلىٰ آل إبراهيم، إنَّك حميد مجيد.

أما بعد..

فحدثني جماعة من الشيوخ وهو أول حديث سمعته منهم، بإسناد كل إلىٰ سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار عن أبي قابوس مولىٰ عبد الله بن عمرو عن عبد الله بن عمرو بن العاصي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الرّاحمون يرحمهم الرَّحمٰن، ارحموا مَنْ في الأرض يرحمكم مَنْ في السماء».

ومن آكد الرّحمة رحمة المعلِّمين بالمتعلمين في تلقينهم أحكام الدِّين وترقيتهم في منازل اليقين، ومن طرائق رحمتهم إيقافُهم علىٰ مهمّات العلم بإقراء أصول المُتون، وتبيين مقاصدها الكلية ومعانيها الإجمالية ليستفتح بذلك المبتدئون تلقيّهم، ويجد فيه المتوسِّطون ما يُذَكِّرهم، ويطَّلِع منه المنتهون إلىٰ تحقيق مسائل العلم.

وهٰذا المجلس الثاني في شرح الكتاب الأول من برنامج مهمات العلم في سنته السادسة، ست وثلاثين بعد الأربعمائة والألف (١٤٣٦)، وهو كتاب «تعظيم العلم» لمصنفه صالح بن عبد الله بن حمد العصيمي.

فقد انتهىٰ بنا البيان إلىٰ قوله: المعقد الحادي عشر.

نعم.

قارئ المتن: الحمد لله رب العالمين، وصلىٰ الله وسلم علىٰ نبينا محمد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين، اللهم اغفر لشيخنا ولوالديه، ولمشايخه وللمسلمين أجمعين.

الْمَعْقِدُ الْحَادِيَ عَشَر
صِيَانَةُ الْعِلْمِ عمَّا يَشِين
مِمَّا يُخَالِفُ الْمُرُوءَة ويَخْرِمُهَا

فَمَنْ لَم يَصُنِ الْعِلْمَ لَمْ يَصُنْهُ الْعِلْمُ -كَمَا قَالَ الشَّافِعِي-، وَمَنْ أَخَلَّ بِالْمُرُوءَةِ بِالْوُقُوعِ فِيمَا يَشِينُ فَقَدْ اسْتَخَفَّ بِالْعِلْمِ فَلَمْ يُعَظِّمْهُ ووَقَعَ فِي الْبَطَالَةِ فَتُفْضِي بِهِ الْحَالُ إِلَىٰ زَوَالِ اسْمِ الْعِلْمِ عَنْهُ.

قَالَ وَهْبُ بْن مُنَبِّهٍ رَحِمَهُ اللهُ: (لَا يَكُونُ الْبَطَّالُ مِنَ الْحُكَمَاءِ).

لَا يُدْرِكُ الْعِلْمَ بَطَّالٌ وَلَا كَسِلٌ وَلَا مَلُولٌ وَلَا مَنْ يَأْلَفُ الْبَشَرَا

وَجِمَاعُ الْمُرُوءَةِ كَمَا قَالَ ابْنُ تَيْمِيَّةَ الْجَدُّ فِي «الْمُحَرَّرِ» وَتَبِعَهُ حَفِيدُهُ فِي بَعْضِ فَتَاوِيهِ: اسْتِعْمَالُ مَا يُجَمِّلُهُ وَيَزِينُهُ وَتَجَنُّبُ مَا يُدَنِّسُهُ وَيَشِينُهُ.

قِيلَ لِأَبِي مُحَمَّدٍ سُفْيَانَ بْن عُيَيْنَةَ قَدْ اسْتَنْبَطْتَ مِنَ الْقُرْآنِ كُلَّ شَيْءٍ فَأَيْنَ الْمُرُوءَةَ فِيهِ؟ قَالَ: فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ [الْأَعْرَاف] فَفِيهِ الْمُرُوءَةُ وَحُسْنُ الْأَدَبِ وَمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ.

وَمِنْ أَلْزَمِ أَدَبِ النَّفْسِ لِلطَّالِبِ تَحَلِّيهِ بِالْمُرُوءَةِ وَمَا يَحمِلُ عَلَيْهَا، وَتَنَكُّبُه خَوَارِمَهَا الَّتِي تُخِلُّ بِهَا كَحَلْقِ لِحْيَتِه فَقَدْ عَدَّهُ فِي خَوَارِمِ الْمُرُوءَةِ ابْنُ حَجَرٍ الْهَيْتَمِي مِنَ الشَّافِعِيَّةِ وَابْنِ عَابِدِينَ مِنَ الْحَنَفِيَّةِ.

أَو كَثْرَةِ الِالْتِفَاتِ فِي الطَّرِيقِ وَعدَّهُ مَن خَوَارِمِهَا ابْنُ شِهَابِ الزُّهْرِيّ وَإِبْرَاهِيمُ النَّخَعِي مَن الْمُتَقَدِّمِينَ.

أَوْ مَدِّ الرِّجْلَيْنِ فِي مَجْمَعِ النَّاسِ مِنْ غَيرِ حَاجَةٍ وَلَا ضَرُورَةٍ دَاعِيَةٍ وَعدَّهُ مِنَ الْخَوَارِمِ جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ أَبُو بَكْرٍ الطَّرْطُوشِي مِنَ الْمَالِكِيَّةِ وَأَبُو مُحَمَّدٍ ابْنُ قُدَامَةٍ وَأَبُو الْوَفَاءِ ابْنُ عَقِيلٍ مِنَ الْحَنَابِلَةِ.

أَوْ صُحْبَةِ الْأَرَاذِلِ وَالْفُسَّاقِ وَالْمُجَّانِ وَالبَطَّالِين وَعدَّهُ مِنْ خَوَارِمِ الْمُرُوءَةِ جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ أَبُو حَامِدٍ الْغَزَّالِيّ وَأَبُو بَكْرِ بْنِ الطَّيِّبِ مِنَ الشَّافِعِيَّةِ وَالْقَاضِي عِيَاضٍ الْيَحْصُبِيُّ مِنَ الْمَالِكِيَّةِ.

أَوْ مُصَارَعَةِ الْأَحْدَاثِ وَالصِّغَارِ وَعدَّهُ مِنَ الْخَوَارِمِ ابْنُ الْهُمَامِ وَابْنُ نُجَيمٍ مِنَ الْحَنَفِيَّةِ.

وَمَنْ أَخَلَّ بِمُرُوءَتِهِ وَهُوَ يَنْتَسِبُ إِلَىٰ الْعِلْمِ فَقَدْ افْتَضَحَ عِنْدَ الْخَاصِّ وَالْعَامِّ وَلَمْ يَنَلْ مِنْ شَرَفِ الْعِلْمِ إِلَّا الْحُطَامَ.

ذكر المصنف وفقه الله (**الْمَعْقِدُ الْحَادِيَ عَشَر**) من معاقد تعظيم العلم وهو: (**صِيَانَةُ الْعِلْمِ**) أي: حفظه، وحمايته (**عمَّا يَشِين**) أي: يقبح.

ثم بيّن المَشِينَ الْمُقَبَّحَ فقال: (مِمَّا يُخَالِفُ الْمُرُوءَةَ ويَخْرِمُهَا)؛ فكلُّ شيءٍ اتّصل بمخالفة المروءة وخرْمِها فإنَّ العلم يُحفَظ ويُحمىٰ عنه، وسيأتي مزيد بيان لمعنىٰ خوارم المروءة.

واستفتح بيان هذا المعقد بالكلمة المأثورة عن الشافعي أنه قال: (مَنْ لَمْ يَصُنِ الْعِلْمَ لَمْ يَصُنْهُ الْعِلْمُ) أي: مَنْ لم يحفظ العلم فإن العلم لا يحفظُه، ومُقتضىٰ ذلك أن مَنْ حفظ العلم في نفسه وفي النَّاس فأقامه وَفق المقدَّر شرعًا وعظَّمه في نفسه وفي الخلق نال من العلم بُغيته.

ثم ذكر أن (مَنْ أَخَلَّ بِالْمُرُوءَةِ بِالْوُقُوعِ فِيمَا يَشِينُ فَقَدْ اسْتَخَفَّ بِالْعِلْمِ فَلَمْ يُعَظِّمْهُ وَوَقَعَ فِي الْبَطَالَةِ فَتُفْضِي بِهِ الْحَالُ إِلَىٰ زَوَالِ اسْمِ الْعِلْمِ عَنْهُ)؛ فيخرج من العلم والحكمة إلىٰ البطالة والمَجانة.

وذكر قول وهب بن منبّه أحد التابعين: (لَا يَكُونُ الْبَطَّالُ مِنَ الْحُكَمَاءِ) أي: لا يكون الماجن المشتغل بالباطل من أهل الحكمة والعلم.

ثم ذكر بيتًا في ذلك أتبعه ببيان حقيقة المروءة نقلًا عن ابن تيمية الجد وحفيده أبي العباس ابن تيمية أحمد بن عبد الحليم أنهما ذكرا حدّها فقالا: (اسْتِعْمَالُ مَا يُجَمِّلُهُ وَيَزِينُهُ وَتَجَنُّبُ مَا يُدَنِّسُهُ وَيَشِينُهُ).

فمدار المروءة علىٰ أمرين:

أحدهما: استعمال المُجمِّل الْمُزَيِّن.

والآخر: اجتناب المدنِّس الْمُشَيِّن.

ثم ذكر استنباط أبي محمد سفيان بن عيينة المروءة من القرآن في قوله تعالىٰ: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ١٩٩﴾[الأعراف].

ثم قال: (وَمِنْ أَلْزَمِ أَدَبِ النَّفْسِ لِلطَّالِبِ تَحَلِّيهِ بِالْمُرُوءَةِ) يعني: اتِّصافَه بها.

(وَمَا يَحمِلُ عَلَيْهَا، وَتَنَكُّبُهُ خَوَارِمَهَا الَّتِي تُخِلُّ بِهَا)، والخوارم: جمع خُرْم: وهو الشق، وخوارم المروءة: مفسداتها، فما أفسد المروءة بإضعافها أو إذهابها فإنه خارمٌ لها ينبغي أن يتجنّبه متلمس العلم.

ثم ذكر جُملًا مما يخلّ بالمروءة مأثورًا عن أهل العلم من الأوائل (كحلق اللحية، أو كثرة الالتفات في الطريق، أو مدّ الرجلين في مجمع الناس من غير حاجة ولا ضرورة داعية، أو صحبة الأراذل والفساق والمُجَّان والبطالين، أو مصارعة الأحداث والصغار) فكل هؤلاء المذكورات مما يتجافاه ملتمس العلم؛ لأنه مما يخلّ بالمروءة فيضعفها فيزول اسم العلم عن متعاطيها.

ثم قال بعد: (وَمَنْ أَخَلَّ بِمُرُوءَتِهِ وَهُوَ يَنْتَسِبُ إِلَىٰ الْعِلْمِ فَقَدْ افْتَضَحَ عِنْدَ الْخَاصِّ وَالْعَامِّ) أي: بان عواره، وظهرت عورته لأن المروءة يدعو إلىٰ حفظها كرامة النفس، ولو لم يكن صاحبُها منسوبًا إلىٰ العلم، فإذا كان المرء منتسبًا إلىٰ العلم فهو أحرىٰ أن يكون كريم النَّفس، فلا يواقع شيئًا من هذه الخوارم المُخِلَّة.

ثم قال بعد: (وَلَمْ يَنَلْ مِنْ شَرَفِ الْعِلْمِ إِلَّا الْحُطَام) أي: لا يصل إلىٰ المتهتك قليل المروءة من العلم إلا شيء يسير بمنزلة الفتات المتساقط من طعام أو غيره.

الْـمَعْقِدُ الثّانِي عَشَرَ

انْتِخَابُ الصُّحْبَةِ الصَّالِحَةِ لَه

فَالإِنْسَانُ مَدَنِيٌّ بِالطَّبْعِ، وَاتِّخَاذُ الزَّمِيلِ ضَرُورَةٌ لَازِمَةٌ فِي نُفُوسِ الْخَلْقِ.

فَيَحْتَاجُ طَالِبُ الْعِلْمِ إِلَىٰ مُعَاشَرَةِ غَيْرِهِ مِنَ الطُّلَّاب لِتُعِينَهُ هٰذِهِ الْـمُعَاشَرَةُ عَلَىٰ تَحْصِيلِ الْعِلْمِ وَالِاجْتِهَادِ فِي طَلَبِهِ.

وَالزَّمَالَةُ فِي الْعِلْمِ إِنْ سَلِمَتْ مِنَ الْغَوَائِلِ نَافِعَةٌ فِي الْوُصُولِ إِلَىٰ الْـمَقْصُودِ.

وَلَا يَحْسُنُ بِقَاصِدِ الْعُلَا إِلَّا انْتِخَابَ صُحْبَةٍ صَالِحَةٍ تُعِينُهُ فَإِنَّ لِلْخَلِيلِ فِي خَلِيلِهِ أَثَرًا.

قَالَ أَبُو دَاوُد وَالتِّرْمِذِيُّ وَالسِّيَاقُ لِأَبِي دَاوُدَ: حَدَّثَنَا ابْنُ بَشَّار، حَدَّثَنَا أَبُو عَامِرٍ وَأَبُو دَاوُدَ، قَالَا: حَدَّثَنَا زُهَيْرُ بْنُ مُحَمَّدٍ قَالَ: حَدَّثَنِي مُوسَىٰ بْن وِرْدَان عَن أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَال: «الرَّجُلُ عَلَىٰ دِينِ خَلِيلِهِ، فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلْ».

يَقُولُ الرَّاغِبُ الْأَصْفَهَانِيُّ: لَيْسَ إِعْدَاءُ الْـجَلِيسِ لِجَلِيسِهِ بِمَقَالِهِ وَفِعَالِهِ، فَقَطْ؛ بَلْ بِالنَّظَرِ إِلَيْهِ.

لَا تَصْحَبِ الْكَسْلَانَ فِي حَالَاتِهِ ... كَمْ صَالِحٍ بِفَسَادِ آخَرَ يَفْسُدُ
عَدْوَىٰ الْبَلِيدِ إِلَىٰ الْجَلِيدِ سَرِيعَةٌ ... كَالْجَمْرِ يُوضَعُ فِي الرَّمَادِ فَيَخْمُدُ

وَالْجَلِيدُ هُو الْجَادُّ الْحَازِمُ.

إِنَّمَا يَخْتَارُ لِلصُّحْبَةِ مَنْ يُعَاشِرُ لِلْفَضِيلَةِ لَا لِلْمِنْفَعَةِ وَلَا لِلَّذَّةِ فَإِنَّ عَقْدَ الْـمُعَاشَرَةِ يُبْرَمُ عَلَىٰ هٰذِهِ الْـمَطَالِبِ الثَّلَاثَةُ: الْفَضِيلَةِ وَالْـمَنْفَعَةِ وَاللَّذَّةِ، كَمَا ذَكَرَهُ شَيْخُ شُيُوخِنَا مُحَمَّدُ الْخَضِرُ بْنُ حُسَيْنٍ فِي «رَسَائِلِ الإِصْلَاحِ»، فانتَخِبْ صَدِيقَ الْفَضِيلَةِ زَمِيلًا، فَإِنَّكَ تُعْرَفُ بِهِ.

قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ ﵁: اعْتَبِرُوا الرَّجُلَ بِمَنْ يُصَاحِبُ، فَإِنَّمَا يُصَاحِبُ الرَّجُلَ مَنْ هُوَ مِثْلَهُ.

وَأَنْشَدَ أَبُو الْفَتْحِ الْبُسْتِيُّ لِنَفْسِهِ:

إِذَا مَا اصْطَنَعْتَ امْرَأً فَلْيَكُنْ ... شَرِيفَ النِّجَارِ زَكِيَّ الْحَسَبْ
فَنَذْلُ الرِّجَالِ كَنَذْلِ النَّبَاتِ ... فَلَا لِلثِّمَارِ وَلَا لِلْحَطَبْ

يَقُولُ ابْنُ مَانِعٍ ؒ فِي «إِرْشَادِ الطُّلَّابِ» -وَهُو يُوصِي طَالِبَ الْعِلْمِ-:

(وَيَحْذَرُ كُلَّ الْحَذَرِ مِنْ مُخَالَطَةِ السُّفَهَاءِ وَأَهْلَ الْـمُجُونِ وَالْوَقَاحَةِ وَسِيِّئِي السُّمْعَةِ وَالْأَغْبِيَاءِ وَالْبُلَدَاءِ فَإِنَّ مُخَالَطَتَهُم سَبَبُ الْحِرْمَانِ وَشَقَاوَةِ الإِنْسَانِ).

وَكَأَنَّ هٰذَا عَيْنُ قَوْلِ سُفْيَانَ بْنُ عُيَيْنَةَ: (إِنِّي لأَحْرِمُ جُلَسَائِي الْحَدِيثَ الْغَرِيبَ لِمَوْضِعِ رَجُلٍ وَاحِدٍ ثَقِيلٍ).

فَقَدْ يُحْرَمُ الْـمُتَعَلِّمُ الْعِلْمَ لِأَجْلِ صَاحِبِهِ فَاحْذَرْ هٰذَا الصِّنْفَ وَإِنْ تَزَيَّا بِزِيِّ الْعِلْمِ فَإِنَّهُ يُفْسِدُكَ مِنْ حَيْثُ لَا تُحِسُّ.

ذكر المصنف وفقه الله (الْـمَعْقِدُ الثاني عَشَرَ) من معاقد تعظيم العلم وهو: (انْتِخَابُ الصُّحْبَةِ الصَّالِحَةِ لَهُ) أي: اختيار صفوة من الخلق يصحبهم فيه، فالانتخاب: هو اختيار الصفوة.

والداعي إلىٰ اختيار تلك الصفوة في صحبة العلم: أن (الإِنْسَانَ مَدَنِيٌّ بِالطَّبْعِ) أي: لا بد له من الاجتماع مع غيره من أبناء جنسه، ومشاركتهم في تحصيل مصالحهم بمعونة بعضهم بعضًا.

وأصله في القرآن قوله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾[الحجرات:١٣] أي: لتنعقد بينكم آصرة المَعرفة المحقّقِة مصالحكم، وهي المسماة بالمدنية.

ثم ذكر أن (اتِّخَاذَ الزَّمِيلِ ضَرُورَةٌ لَازِمَةٌ فِي نُفُوسِ الْخَلْقِ.)؛ فالمرء مفتقرٌ إلىٰ مَنْ يؤانسه ويشاركه في مطلوبه.

ثم قال بعدُ: (وَالزَّمَالَةُ فِي الْعِلْمِ إِنْ سَلِمَتْ مِنَ الْغَوَائِلِ نَافِعَةٌ فِي الْوُصُولِ إِلَىٰ الْـمَقْصُودِ): أي الرُّفقة في العلم معونةٌ في أخذه من أنفع ما يكون، شرط أن تسلَم من الغوائل: أي من العوادي المفسدة لها كتزيُّن بعضهم لبعض، أو محاباة بعضهم بعضًا وترْك قيام بعضهم علىٰ بعض بالنصح والتواصي بالحق.

فإنهم إذا تخاذلوا عن أَطْرِ أنفسهم علىٰ الخير ونهيها عن الشر ربّما نُقلوا من الخير الذي أرادوه إلىٰ شر لم يتوقَّعوه.

ثم قال: (وَلَا يَحْسُنُ بِقَاصِدِ الْعُلَا) أي: المطالب العالية، ومن جملتها العلم (إِلَّا انْتِخَابَ صُحْبَةٍ صَالِحَةٍ تُعِينُهُ) وعلّله بقوله: (فَإِنَّ لِلْخَلِيلِ فِي خَلِيلِهِ أَثَرًا) أي: للزميل في زميله أثرًا، وأبلغ الزمالة ما ارتفع إلىٰ الخُلّة وهي كمال المحبة المنعقدة بين الزميلين.

ثم ذكر أصل هذا من السُّنة وهو حديث أبي هريرة أنَّ النبي ﷺ قال: «الرجل علىٰ دين خليله فلينظر أحدكم مَنْ يخالل» رواه أبو داود والترمذي، وهو حديث حسن.

فالرجل يكون مجاريًا خليله الذي يأنس به في دينه الذي يدين به، فينبغي أن يتخيَّر العبدُ من الأخلاء مَنْ يكون معينًا له علىٰ الخير، موحِّدًا لله، متابعًا سُنة النبي ﷺ، نافيًا البدعَ عن نفسه، متخلِّصًا من الأهواء، محبًا للخير، راغبًا في العلم.

ثم ذكر من المنقول عن الأوائل نثرًا ونظمًا ما يبيِّن أثر الجليس في جليسه.

ثم بيَّن بَعْدُ الأواصِر التي تنعقد بها الصُّحبة، فإن الناس يتصاحبون لأحد ثلاثة مطالب لا رابع لها:

المطلب الأول: صُحبة الفضيلة.

والمطلب الثاني: صُحبة المنفعة.

والمطلب الثالث: صُحبة اللذة.

فتنعقد رابطة بين امرئ وغيره تارةً لأجل فضيلةٍ يتشاركون في طلبها، وتنعقد تارةً أخرىٰ بيْن هٰذا وذاك لأجل منفعة يرجوها أحدُهما من الآخر، وتنعقد تارةً أخرىٰ بين هٰذا وذاك رجاء لذّة يُصيبها من صاحبه.

وهذه المطالب الثلاث لا خير في شيء منها إلا في أوّلها وهي أن تكون رابطة الزّمالة منعقدةً علىٰ آصِرة الفضيلة؛ فيُشارك المرء غيره لأجل تحصيل فضيلة يتعاونان علىٰ تحصيلها، لأنَّ ملتمس المنفعة أو اللذة معك إذا حازها ولّاك ظهره، وأما صاحب الفضيلة فإنه لا يزال يشاركك ما تريد من الفضائل، ولو قُدِّر أنَّه ابتعد عنك لم يبتعد إلّا في خير، وأمَّا مُلتمس المنفعة أو اللَّذة فإنهما ربما جرا عليك شرًا بعد مفارقتهما لك.

ثم قال بعد: (فانتَخِبْ صَدِيقَ الْفَضِيلَةِ زَمِيلًا، فَإِنَّكَ تُعْرَفُ بِهِ) أي: تتميز به.

ومن المنقول عن ابن مسعود رضي الله عنه قوله: (اعْتَبِرُوا الرَّجُلَ بِمَنْ يُصَاحِبُ) أي: استدلُّوا علىٰ الرجل واعرفوه بمَنْ يصاحب (فَإِنَّمَا يُصَاحِبُ الرَّجُلَ مَنْ هُوَ مِثْلَهُ) فإذا صحب أهل الفضائل الكاملة من أهل التوحيد والسُّنة والطاعة فهو منهم ومعهم، وإذا أخلد إلىٰ المتلطِّخين بالشرك أو البدعة أو المعاصي فهو معهم ومنهم.

ثم قال: قال أبو الفتح البستي:

إِذَا مَا اصْطَنَعْتَ امْرَأً فَلْيَكُنْ ... شَرِيفَ النِّجَارِ زَكِيَّ الْحَسَبِ
فَنَذْلُ الرِّجَالِ كَنَذْلِ النَّبَاتِ ... فَلَا لِلثِّمَارِ وَلَا لِلْحَطَبِ

(النِّجَار) أي: الأصل، والنِّجار: بكسر النون وضمها أيضًا،

والأنساب مؤثرة في الطبائع. ذكره ابن تيمية الحفيد في «اقتضاء الصراط المستقيم».

ولذلك لا تُلِمُّ خوارم المروءة وقبائح العادات إلا بساقط الأصل.

ثم ذكر من كلام ابن مانع رَحِمَهُ اللَّهُ وصيته طلاب العلم في قوله: (وَيَحذَرَ كُلَّ الْحَذَرِ مِنْ مُخَالَطَةِ السُّفَهَاءِ وَأَهْلَ الْمُجُونِ وَالوَقَاحَةِ وَسِيِّئِي السُّمْعَةِ وَالْأَغْبِيَاءِ وَالْبُلَدَّاءِ فَإِنَّ مُخَالَطَتَهُم سَبَبُ الْحِرْمَانِ وَشَقَاوَةِ الْإِنْسَانِ) لأن ما هم فيه من سفه، أو مجون، أو وقاحة، أو سوء سمعة، أو غباوة، أو بلادة ينجذب إلىٰ الإنسان من خليله الذي يُرافقه إذا طالت مدة صحبته له، وأشدّ من ذلك أن ينأىٰ المرء بنفسه عن كل امرئ يتوجّس منه شرًّا من شرك، أو بدعة، أو هوىٰ؛ فإن مضرة هؤلاء علىٰ دين العبد وعقله أشد من مضرّة السفهاء وأهل المجون والوقاحة، والأغبياء.

ثم ذكر قول سفيان بن عيينة: (إِنِّي لَأَحْرِمُ جُلَسَائِي الْحَدِيثَ الْغَرِيبَ) يعني الحديث الذي يُستفاد بعلوه أو محل معناه (لِمَوْضِعِ رَجُلٍ وَاحِدٍ ثَقِيلٍ) أي: يمنعهم أن يروي لهم حديثًا لما يراه من حضور مَنْ لا يستحقّ العلم معهم، فقد يُحرَم المتعلم العلم لأجل صاحِبه، فينبغي أن يتخير المرء من الصحبة من يُجمّله في أخذ العلم، ويُعينه عليه، ويقربه منه، ويحببه فيه، فإن صحبتك مثل هذا مما يعينك علىٰ قطع الطريق إلىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فإنّ النّفس يثقل عليها أن تسير وحدها، وتجد مشقة في ذلك، وتجذِبها أنواعٌ من الواردات من العلائق والعوائق والعوائد، فلا مَخلص لها إلا بأسباب من جملتها أن يتخذ المرء خليلًا راشدًا ناصحًا يصطفيه يقارنه في طلب ما يبتغيه من العلا وأعظمه العلم.

الْمَعْقِدُ الثَّالِثَ عَشَرَ
بَذْلُ الْجُهْدِ فِي تَحَفُّظِ الْعِلْمِ وَالْمُذَاكَرَةِ بِهِ وَالسُّؤَالِ عَنْهُ

إِذْ تَلَقِّيهِ عَنِ الشُّيُوخِ لَا يَنْفَعُ بِلَا حِفْظٍ لَهُ، وَمُذَاكَرَةٍ بِهِ، وَسُؤَالٍ عَنْهُ، فَهَؤُلَاءِ تُحَقِّقُ فِي قَلْبِ طَالِبِ الْعِلْمِ تَعْظِيمَهُ، بِكَمَالِ الالْتِفَاتِ إِلَيْهِ وَالاشْتِغَالِ بِهِ، فَالْحِفْظُ خَلْوَةٌ بِالنَّفْسِ، وَالْمُذَاكَرَةُ جُلُوسٌ إِلَىٰ الْقَرِينِ، وَالسُّؤَالُ إِقْبَالٌ عَلَىٰ الْعَالِمِ.

فَبِالْحِفْظِ يُقَرَّرُ الْعِلْمُ فِي الْقَلْبِ وَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ جُلُّ هِمَّةِ الطَّالِبِ مَصْرُوفًا إِلَىٰ الْحِفْظِ وَالْإِعَادَةِ كَمَا يَقُولُهُ ابْنُ الْجَوْزِي رَحِمَهُ اللهُ فِي «صَيْدِ خَاطِرِهِ»: وَلَمْ يَزَلِ الْعُلَمَاءُ الْأَعْلَامُ يَحُضُّونَ عَلَىٰ الْحِفْظِ وَيَأْمُرُونَ بِهِ.

قَالَ عُبَيْدُاللهِ بْنُ الْحَسَنِ: وَجَدْتُ أَحْضَرَ الْعِلْمِ مَنْفَعَةً مَا وَعَيْتُه بِقَلْبِي وَلُكْتُهُ بِلِسَانِي.

وَسَمِعْتُ شَيْخَنَا ابْنَ عُثَيْمِين رَحِمَهُ اللهُ يَقُولُ: حَفِظْنَا قَلِيلًا وَقَرَأْنَا كَثِيرًا فَانْتَفَعْنَا بِمَا حَفِظْنَا أَكْثَرَ مِنِ انْتِفَاعِنَا بِمَا قَرَأْنَا.

لَيْسَ بِعِلْمٍ مَا حَوَىٰ الْقِمَطْرُ ... مَا الْعِلْمُ إِلَّا مَا حَوَاهُ الصَّدْرُ.

وَالْمُتَلَمِّسُ لِلْعِلْمِ لَا يَسْتَغْنِي عَنِ الْحِفْظِ وَلَا يَجْمُلُ بِهِ أَنْ يُخْلِي نَفْسَهُ مِنْهُ، وَإِذَا قَدِرَ عَلَىٰ مَا كَانَ يَصْنَعُ ابْنُ الْفُرَاتِ رَحِمَهُ اللهُ فَلْيَأْخُذْ بِهِ، فَقَدْ كَانَ لَا يَتْرُكُ كُلَّ يَوْمٍ إِذَا أَصْبَحَ أَنْ يَحْفَظَ شَيْئًا وَإِنْ قَلَّ وَمَنْ عَقَلَ هٰذَا الْمَعْنَىٰ لَمْ يَزَلْ مِنَ الْحِفْظِ فِي ازْدِيَادٍ فَلَا يَنْقَطِعُ عَنْهُ حَتَّىٰ الْمَوْت، كَمَا اتَّفَقَ ذَلِكَ لِابْنِ مَالِكٍ رَحِمَهُ اللهُ صَاحِبُ الْأَلْفِيَّةِ النَّحْوِيَّةِ فَإِنَّهُ حَفِظَ فِي يَوْمِ مَوْتِهِ خَمْسَةَ شَوَاهِدَ.

وَبِالْمُذَاكِرَةِ تَدُومُ حَيَاةُ الْعِلْمِ فِي النَّفْسِ وَيَقْوَىٰ تَعَلُّقُهُ بِهَا، وَالْمُرَادُ بِالْمُذَاكَرَةِ مُدَارَسَةُ الْأَقْرَانِ.

وَقَدْ أُمِرْنَا بِتَعَاهُدِ الْقُرْآنِ الَّذِي هُوَ أَيْسَرُ الْعُلُومِ.

قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللهُ : حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ يُوسُف، قَالَ: أَخْبَرَنَا مَالِكٌ، عَنْ نَافِعٍ، عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّمَا مَثَلُ صَاحِبِ الْقُرْآنِ كَمَثَلِ صَاحِبِ الْإِبِلِ الْمُعَقَّلَةِ إِنْ عَاهَدَ عَلَيْهَا أَمْسَكَهَا، وَإِنْ أَطْلَقَهَا ذَهَبَتْ». وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ مَالِكٍ بِهِ نَحْوَهُ.

قَالَ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ رَحِمَهُ اللهُ فِي كِتَابِهِ «التَّمْهِيدِ» عِنْدَ هٰذَا الْحَدِيثِ: وَإِذَا كَانَ الْقُرْآنُ الْمُيَسَّرُ لِلذِّكْرِ كَالْإِبِلِ الْمُعَقَّلَةِ مَنْ تَعَاهَدَهَا أَمْسَكَهَا فَكَيْفَ بِسَائِرِ الْعُلُومِ.

وَكَانَ الزُّهْرِيُّ رَحِمَهُ اللهُ يَقُولُ: إِنَّمَا يُذْهِبُ الْعِلْمَ النِّسْيَانُ وَتَرْكُ الْمُذَاكَرَةِ.

وَبِالسُّؤَالِ عَنِ الْعِلْمِ تُفْتَحُ خَزَائِنُهُ.

قَالَ الزُّهْرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: إِنَّمَا هٰذَا الْعِلْمُ خَزَائِنُ وَتَفْتَحُهَا الْمَسْأَلَةُ.

وَحُسْنُ الْمَسْأَلَةِ نِصْفُ الْعِلْمِ وَالسُّؤَالَاتُ الْمُصَنَّفَةُ كَمَسَائِلِ أَحْمَدَ الْمَرْوِيَّةِ عَنْهُ بُرْهَانٌ جَلِيٌّ عَلَى عَظِيمِ مَنْفَعَةِ السُّؤَالِ.

وَقِلَّةُ الْإِقْبَالِ عَلَى الْعَالِمِ بِالسُّؤَالِ إِذَا وَرَدَ عَلَى بَلَدٍ تَكْشِفُ مَبْلَغَ الْعِلْمِ فِيهِ فَهٰذَا سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقْدُمُ عَسْقَلَانَ فَيَمْكُثُ ثَلَاثًا لَا يَسْأَلُهُ إِنْسَانٌ عَنْ شَيْءٍ فَيَقُول لِرُوَّادِ بْنِ الْجَرَّاحِ أَحَدُ أَصْحَابِهِ: اكْتَرِ لِي! أَخْرُجُ مِنْ هٰذَا الْبَلَدِ، هٰذَا بَلَدٌ يَمُوتُ فِيهِ الْعِلْمُ.

فَمَنْ لَقِيَ شَيْخًا فَلْيَغْتَنِمْ لِقَاءَهُ بِالسُّؤَالِ عَمَّا يُشْكِلُ عَلَيْهِ وَيَحْتَاجُ إِلَيْهِ لَا سُؤَالَ مُتَعَنِّتٍ مُمْتَحِنٍ.

وَهَذِهِ الْمَعَانِي الثَّلَاثَةُ لِلْعِلْمِ بِمَنْزِلَةِ الْغَرْسِ لِلشَّجَرِ وَسَقْيِهِ وَتَنْمِيَتِهِ بِمَا يَحْفَظُ قُوَّتَهُ وَيَدْفَعُ آفَتَهُ فَالْحِفْظُ غَرْسُ الْعِلْمِ وَالْمُذَاكَرَةُ سَقْيُهُ وَالسُّؤَالُ عَنْهُ تَنْمِيَتُهُ.

ذكر المصنف وفقه الله (**الْمَعْقِدَ الثَّالِثَ عَشَرَ**) من معاقد تعظيم العلم: وهو (**بَذْلُ الْجُهْدِ فِي تَحَفُّظِ الْعِلْمِ وَالْمُذَاكَرَةِ بِهِ وَالسُّؤَالِ عَنْهُ**) ذاكرًا ثلاثة أصول في أخذ العلم:

أحدها: تحفظ العلم، أي: حفظه.

وثانيها: مذاكرته، أي: مدارسته مع الأقران.

وثالثها: السؤال عنه، أي: الاستفهام عنه من أهله.

ثم أفاض يبيّن ذلك مستفتحًا كلامه بما يتعلق بالحفظ ذاكرًا منفعته فقال: (إِذْ تَلَقِّيهِ) يعني: العلم (عَنِ الشُّيُوخِ لَا يَنْفَعُ بِلَا حِفْظٍ لَهُ، وَمُذَاكَرَةٍ بِهِ، وَسُؤَالٍ عَنْه، فَهَؤُلَاءِ تُحَقِّقُ فِي قَلْبِ طَالِبِ الْعِلْمِ تَعْظِيمَهُ، بِكَمَالِ الِالْتِفَاتِ إِلَيْهِ وَالاشْتِغَالِ بِهِ، فَالْحِفْظُ خَلْوَةٌ بِالنَّفْسِ، وَالْمُذَاكَرَةُ جُلُوسٌ إِلَى الْقَرِينِ، وَالسُّؤَالُ إِقْبَالٌ عَلَى الْعَالِمِ.).

ثم ذكر منفعة الحفظ فقال: (فَبِالْحِفْظِ يُقَرَّرُ الْعِلْمُ فِي الْقَلْبِ) أي: يثبت فيه ويكون راسخًا.

وذكر ممّا ذكر في مدحه قول عبيد الله بن الحسن: (وَجَدْتُ أَحْضَرَ الْعِلْمِ مَنْفَعَةً) أي: أسرعه حضورًا في النّفع، (وَجَدْتُ أَحْضَرَ الْعِلْمِ مَنْفَعَةً مَا وَعَيْتُه بِقَلْبِي) أي: أتقنته وضبطته بقلبي، (وَلُكْتُهُ بِلِسَانِي) أي: حركت به لساني متحفظًا له.

فإن من قواعد حفظ العلم: أن مَنْ أراد حفظ شيء رفع صوته به ليستعين برفع الصوت علىٰ ثبات المعنىٰ في القلب، فإن الحفظ يُستجلَب من المحفوظ بجمع آلتين:

إحداهما: العين بإمضاء البصر في المحفوظ.

والأخرىٰ: الأذن برفع الصوت حتىٰ يصل المحفوظ إلىٰ الأذن فيقرُّ في القلب.

فإذا أردت حفظ شيء فارفع صوتك.

وإذا أردت فهم شيء فاخفض صوتك به؛ فإنّ القراءة المتفَهِّمة تحتاج إلىٰ جمع قلبٍ علىٰ المراد فهمه، ولا يُمكن جمع القلب إلا بخفض الصوت؛ لأن رفع الصوت يشوش علىٰ القلب ويؤثر فيه اضطرابًا، فإذا حفظت فارفع صوتك، وإذا تفهّمت فاخفضه.

ثم ذكر قول ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ: (حَفِظْنَا قَلِيلًا وَقَرَأْنَا كَثِيرًا فَانْتَفَعْنَا بِمَا حَفِظْنَا أَكْثَرَ مِنِ انْتِفَاعِنَا بِمَا قَرَأْنَا).

ثم بيت الخليل بن أحمد:

لَيْسَ بِعِلْمٍ مَا حَوَىٰ الْقِمَطْرُ   مَا الْعِلْمُ إِلَّا مَا حَوَاهُ الصَّدْرُ

والقِمَطر: بكسر القاف وفتح الميم: اسم وعاء كانت تُحفظ فيه الكتب بمنزلة الحقيبة التي يتخذها الناس اليوم في مقامه.

ثم ذكر أن (الْمُتَلَمِّسُ لِلْعِلْمِ لَا يَسْتَغْنِي عَنِ الْحِفْظِ وَلَا يَجْمُلُ بِهِ أَنْ يُخْلِيَ نَفْسَهُ مِنْهُ، وَإِذَا قَدِرَ عَلَىٰ مَا كَانَ يَصْنَعُ ابْنُ الْفُرَاتِ رَحِمَهُ اللهُ فَلْيَأْخُذْ بِهِ)، فإن ابن الفرات (كَانَ لَا يَتْرُكُ كُلَّ يَوْمٍ إِذَا أَصْبَحَ أَنْ يَحْفَظَ شَيْئًا وَإِنْ قَلَّ) فإذا عقل مقتبس العلم هذا الأصل، فرتب حفظه علىٰ هذا الوجه فلم يخل يومه من حفظ ازداد من المحفوظ وثبت في قلبه، وبقي قادرًا علىٰ الحفظ حتىٰ يموت وإن كان هرمًا؛ لأن القدرة علىٰ الحفظ لا تتعطل إلا بزوال العقل، فإذا خرف المرء أو جُن لم يكن قادرًا علىٰ الحفظ، وأما الكبر والهَرَم فغير مانعٍ، لكنه يحتاج إلىٰ رياضة شديدة لمن لم يكن متعاطيًا الحفظ من قبل، فإن كان المرء متعاطيًا الحفظ من قبل فإنه لا يزال قادرًا علىٰ الحفظ حتىٰ يموت.

ومن أخبار مَنْ مضىٰ فيه أن ابن مالك صاحب الألفية حفِظ في يوم موته خمسة شواهد من الشِّعر، واتَّفق لأبي الفرج ابن الجوزي أن حفظ القراءات العشر بعد سن الثمانين، ولما تحول ابن هشام

النحوي من مذهب الشافعية إلىٰ مذهب الحنابلة وكان كبيرًا حفظ «مختصر الخِرَقي».

ومما يحول بين ملتمس العلم وبين الحفظ آفتان عظيمتان:

الأولىٰ: ترْك رياضة القلْب في الحفظ؛ فإنَّ القلب آلةٌ تقوىٰ بتدريجها، فإذا أخذتَها شيئًا فشيئًا وَرُضْتَهَا علىٰ الحفظ تهيَّأ لك من قوته بعد ما لم يكن لك في الابتداء، فمن مرذول الأفعال المبادرة بالهجوم علىٰ القلب بتكثير المحفوظ لمن لم يكن يتعاطىٰ الحِفظ.

ومن حُسن الفعال المقرِّبة للمنال: أن تدرِّج نفسك إذا ابتدأت الحفظ؛ فتبدأ بشيء يسير ثم ترقِّي نفسك إما بما تعلمه من قوتها، أو بإرشاد معلمك النَّاصح وهذا أكمل، فيتهيأ بعد مدة من قوة الحفظ لك ما لم يكن لك من قبل.

فقد ذكر أبو هلال العسكري في الحث علىٰ طلب العلم أنه لما شرع يطلب العلم كان يجد عناءً في الحفظ، فيبقىٰ مدة مديدة في شيء يسير، فلم يزل يأخذ نفسه بالرِّياضة، أي: يدرِّج نفسه شيئًا فشيئًا في محفوظه تقريرًا له وتأكيدًا لأخذه فيكرره مرات كثيرة حتىٰ بلغ من قدرته علىٰ الحفظ وهو يخبر عن نفسه أولًا أنه لم يكن ذا قُدرة، بلغت به الحال أن يحفظ قصيدة لرؤبة بن العجاج (قاتم الأعماق خاوي المخترق) وهي ثلاثمائة بيت في سحر واحد، فإنه لما أحسن رياضة قلبه بالترقي نال ما أراد من حفظه.

والآفة الثانية: استطالة الطريق والاستعجال؛ فتجد أحدهم هجّامًا علىٰ المحفوظات، فهو يحفظ هنا في «ثلاثة الأصول»، ثم يسمع مَدْعَىٰ حفظ الحديث، فيتحوّل إلىٰ «الأربعين النووية»، ثم يسمع ثالثًا يشكر حفظ معاني القرآن ويثني علىٰ أهلها فيتحول إلىٰ حفظ معاني القرآن، ثم ينقطع عن هذا وذاك، فلا أرضًا قطع ولا ظهرًا أبقىٰ.

ومن بدائع ابن القيم قوله: مَنْ استطال الطريق ضعف مشيه.

فإذا أخذ المرء نفسه في طريق العلم شيئًا فشيئًا متدرجًا لما يرشده إليه الناصحون من أهل العلم، العارفون به وصبر علىٰ ذلك؛ فإنه يدرك مأموله من العلم.

ثم ذكر المصنف منفعة المذاكرة فقال: (وَبِالْـمُذَاكَرَةِ تَدُومُ حَيَاةُ الْعِلْمِ فِي النَّفْسِ وَيَقْوَىٰ تُعَلُّقُهُ بِهَا) وبيّن معنىٰ المذاكرة بقوله: (وَالْـمُرَادُ بِالْـمُذَاكَرَةِ مُدَارَسَةُ الْأَقْرَانِ) أي: أن تجتمع أنت وزميل لك في مدارسة ما تلقيتماه من العلوم حفظًا أو فهمًا.

ثم ذكر أن أصل المدارسة هو الأمر بتعاهد القرآن وفيه قوله ﷺ: « إِنَّمَا مَثَلُ صَاحِبِ الْقُرْآنِ كَمَثَلِ صَاحِبِ الْإِبِلِ الْـمُعَقَّلَةِ » أي: المقيدة، « إِنْ عَاهَدَ عَلَيْهَا أَمْسَكَهَا » أي: إن راقبها، وأحاطها بعنايته أمسكها، « وَإِنْ أَطْلَقَهَا » بإهمالها والغفلة عنها « ذَهَبَتْ »، وإذا كان هذا في القرآن الذي هو أصل العلم فكيف بسائر العلوم؟!

ثم ذكر منفعة السؤال فقال: (وَبِالسُّؤَالِ عَنِ الْعِلْمِ تُفْتَحُ خَزَائِنُهُ).

وذكر قول الزهري: (إِنَّمَا هٰذَا الْعِلْمُ خَزَائِنَ وتَفْتَتِحُهَا الْـمَسْأَلَةُ).

فإذا سأل المتعلم أشياخه في مسائل العلم حاز خيرًا كثيرًا لا يناله مَنْ لا يُعنىٰ بهذا الأمر.

ثم قال: (وَحُسْنُ الْـمَسْأَلَةِ نِصْفُ الْعِلْمِ).

ثم بيّن أن قلة الإقبال علىٰ العالم بالسؤال إذا ورد علىٰ بلد تكشف مبلغ العلم فيه، فإن من طرائق اقتباس العلم سؤال الأشياخ الواردين، فإنهم ربما شُغلوا عن عقد مجالس للتعليم، لكنهم لا يُشغلَون عن الإجابة عن سؤالات السائلين.

فربما لقيت أحدًا من العلماء الكبار المشار إليه، ولم يمكنك القراءة عليه- إما لضيق وقته أو غير ذلك- لكن يمكنك أن تقيد عنه سؤالات، فإذا رتب المرء لقياه بالأشياخ وكان عنده كناش للسؤالات جمع خيرًا كثيرًا كالذي اتفق في مسائل أحمد التي جمعها ابنه صالح، وابنه عبد الله، وابن هاني، وإسحاق ابن منصور في آخرين من أصحابه.

ثم قال: (فَمَنْ لَقِيَ شَيْخًا فَلْيَغْتَنِمْ لِقَاءَهُ بِالسُّؤَالِ عَمَّا يُشْكِلُ عَلَيْهِ وَيَحْتَاجُ إِلَيْهِ لَا سُؤَالَ مُتَعَنِّتٍ مُمْتَحِنٍ).

ثم ختم هذا المعقد بقوله: (وَهَذِهِ الْـمَعَانِي الثَّلَاثَةُ لِلْعِلْمِ بِمَنْزِلَةِ الْغَرْسِ لِلشَّجَرِ وَسَقْيِهِ وَتَنْمِيَتِهِ بِمَا يَحْفَظُ قُوَّتَهُ وَيَدْفَعُ آفَتَهُ فَالْحِفْظُ غَرْسُ الْعِلْمِ) فإذا حفظته غرست العلم في قلبك.

(وَالْـمُذَاكَرَةُ سَقْيُهُ) أي: بمنزلة الماء الذي يُجرىٰ إلىٰ ذلك العلم سقيًا له.

(وَالسُّؤَالُ عَنْهُ تَنْمِيَتُهُ) أي: تزكيته وتقويته، وتكثيره في النفس.

الْـمَعْقِدُ الرَّابِعَ عَشَرَ
إِكْرَامُ أَهْلِ الْعِلْمِ وَتَوْقِيرُهِمْ

إِنَّ فَضْلَ الْعُلَمَاءِ عَظِيمٌ، وَمَنْصِبَهُمْ مَنْصِبٌ جَلِيلٌ؛ لِأَنَّهُمْ آبَاءُ الرُّوحِ، فَالشَّيْخُ أَبٌ لِلرُّوحِ كَمَا أَنَّ الْوَالِدَ أَبٌ لِلْجَسَدِ، وَفِي قِرَاءَةِ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ ﵁ (النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْـمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَهُوَ أَبٌ لَـهُمْ) وَالْأُبُوَّةُ الْـمَذْكُورَةُ فِي هٰذِهِ الْقِرَاءَةِ لَيْسَتْ أُبُوَّةَ النَّسَبِ إِجْمَاعًا وَإِنَّمَا هِيَ الْأُبُوَّةُ الدِّينِيَّةُ الرُّوحِيَّةُ، فَالاعْتِرَافُ بِفَضْلِ الْـمُعَلِّمِينَ حَقٌّ وَاجِبٌ.

قَالَ شُعْبَةُ بْنُ الْـحَجَّاجِ: كُلُّ مَنْ سَمِعْتُ مِنْهُ حَدِيثًا فَأَنَا لَهُ عَبْدٌ.

وَاسْتَنْبَطَ هٰذَا الْـمَعْنَىٰ مِنَ الْقُرْآنِ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ الْأُدْفُوِيُّ فَقَالَ ﵀: إِذَا تَعَلَّمَ الْإِنْسَانُ مِنَ الْعَالِمِ وَاسْتَفَادَ مِنْهُ فَوَائِدَ فَهُوَ لَهُ عَبْدٌ؛ قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ ﴾ [الْكَهْفُ:٦٠]، وَهُوَ يُوشَعُ بْنُ نُونٍ، وَلَمْ يَكُنْ مَمْلُوكًا لَهُ، وَإِنَّمَا كَانَ مُتَلْمِذًا لَهُ، مُتَّبِعًا لَهُ، فَجَعَلَهُ اللهُ فَتَاهُ لِذَلِكَ.

وَقَدْ أَمَرَ الشَّرْعُ بِرِعَايَةِ حَقِّ الْعُلَمَاءِ إِكْرَامًا لَـهُمْ وَتَوْقِيرًا وَإِعْزَازًا.

قَالَ أَحْمَدُ فِي «الْـمُسْنَدِ» حَدَّثَنَا هَارُونُ قَالَ حَدَّثَنَا ابْنُ وَهْبٍ، قَالَ: حَدَّثَنِي مَالِكُ بْنُ الْـخَيْرِ الزِّيَادِيِّ، عَنْ أَبِي قَبِيلٍ الْـمَعَافِرِيِّ، عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ ﵁ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «لَيْسَ مِنْ أُمَّتِي مَنْ لَـمْ يُجِلَّ كَبِيرَنَا، وَيَرْحَمْ صَغِيرَنَا وَيَعْرِفْ لِعَالِـمِنَا حَقَّهُ».

أَمْسَكَ ابْنُ عَبَّاسٍ ﵄ يَوْمًا بِرِكَابِ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ ﵁ فَقَالَ زَيْدٌ: أَتُمْسِكُ لِي وَأَنْتَ ابْنُ عَمِّ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: إِنَّا هٰكَذَا نَصْنَعُ بِالْعُلَمَاءِ.

وَنَقَلَ ابْنُ حَزْمٍ الْإِجْمَاعَ عَلَىٰ تَوْقِيرِ الْعُلَمَاءِ وَإِكْرَامِهِمْ.

وَالْبَصِيرُ بِالْأَحْوَالِ السَّلَفِيَّةِ يَقِفُ عَلَىٰ حَمِيدِ أَحْوَالِهِمْ فِي تَوْقِيرِ عُلَمَائِهِمْ فَقَدْ كَانَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ إِذَا جَلَسُوا إِلَيْهِ كَأَنَّمَا عَلَىٰ رُؤُوسِهِمُ الطَّيْرُ لَا يَتَحَرَّكُونَ.

وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ سِيرِينَ: رَأَيْتُ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي لَيْلَىٰ وَأَصْحَابُهُ يُعَظِّمُونَهُ وَيُسَوِّدُونَهُ وَيُشَرِّفُونَهُ مِثْلَ الْأَمِيرِ.

وَقَالَ يَحْيَىٰ الْـمَوْصِلِيُّ: رَأَيْتُ مَالِكَ بْنَ أَنَسٍ غَيْرَ مَرَّةٍ وَكَانَ بِأَصْحَابِهِ مِنَ الْإِعْظَامِ لَهُ وَالتَّوْقِيرِ لَـهُ، وَإِذَا رَفَعَ أَحَدٌ صَوْتَهُ صَاحُوا بِهِ.

فَمِنَ الْأَدَبِ اللَّازِمِ لِلشَّيْخِ عَلَى الْـمُتَعَلِّمِ -مِمَّا يَدْخُلُ تَحْتَ هٰذَا الْأَصْلِ- التَّوَاضُعُ لَهُ، وَالْإِقْبَالُ عَلَيْهِ، وَعَدَمُ الِالْتِفَاتِ عَنْهُ، وَمُرَاعَاةُ أَدَبِ الْـحَدِيثِ مَعَهُ، وَإِذَا حَدَّثَ عَنْهُ عَظَّمَهُ مِنْ غَيْرِ غُلُوٍّ بَلْ يُنْزِلُهُ مَنْزِلَتَهُ، لِئَلَّا يَشِينَهُ مِنْ حَيْثُ أَرَادَ أَنْ يَمْدَحَهُ، وَلْيَشْكُرْ تَعْلِيمَهُ وَيَدْعُ لَهُ وَلَا يُظْهِرِ الِاسْتِغْنَاءَ عَنْهُ وَلَا يُؤْذِهِ بِقَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ وَلْيَتَلَطَّفْ فِي تَنْبِيهِهِ عَلَى خَطَئِهِ إِذَا وَقَعَتْ مِنْهُ زَلَّةٌ.

وَمِمَّا تُنَاسِبُ الْإِشَارَةُ إِلَيْهِ هُنَا بِاخْتِصَارٍ وَجِيزٌ مَعْرِفَةُ الْوَاجِبِ إِزَاءَ زَلَّةِ الْعَالِمِ وَهُوَ سِتَّةُ أُمُورٍ:

الْأَوَّلُ: التَّثَبُّتُ فِي صُدُورِ الزَّلَّةِ مِنْهُ.

الثَّانِي: التَّثَبُّتُ فِي كَوْنِهَا خَطَأً، وَهَذِهِ وَظِيفَةُ الْعُلَمَاءِ الرَّاسِخِينَ فَيُسْأَلُونَ عَنْهَا.

وَالثَّالِثُ: تَرْكُ اتِّبَاعِهِ فِيهَا.

وَالرَّابِعُ: الْتِمَاسُ الْعُذْرِ لَهُ بِتَأْوِيلٍ سَائِغٍ.

وَالْـخَامِسُ: بَذْلُ النُّصْحِ لَهُ بِلُطْفٍ وَسِرٍّ لَا عُنْفٍ وَلَا تَشْهِيرٍ.

وَالسَّادِسُ: حِفْظُ جَنَابِهِ فَلَا تُهْدَرُ كَرَامَتُهُ فِي قُلُوبِ الْـمُسْلِمِينَ.

وَمِمَّا يُحْذَرُ مِنْهُ مِمَّا يَتَّصِلُ بِتَوْقِيرِ الْعُلَمَاءِ مَا صُورَتُهُ التَّوْقِيرُ وَمَآلُهُ الْإِهَانَةُ وَالتَّحْقِيرُ كَالِازْدِحَامِ عَلَى الْعَالِمِ، وَالتَّضْيِيقِ عَلَيْهِ، وَإِلْجَائِهِ إِلَى أَعْسَرِ السُّبُلِ، فَمَا مَاتَ هُشَيْمُ بْنُ بَشِيرٍ الْوَاسِطِيُّ الْـمُحَدِّثُ الثِّقَةُ رَحِمَهُ اللهُ إِلَّا بِهَذَا، فَقَدِ ازْدَحَمَ أَصْحَابُ الْـحَدِيثِ عَلَيْهِ فَطَرَحُوهُ عَنْ حِمَارِهِ فَكَانَ سَبَبَ مَوْتِهِ رَحِمَهُ اللهُ.

ذكر المصنف وفقه الله (الْـمَعْقِدُ الرَّابِعَ عَشَرَ) من معاقد تعظيم العلم، وهو: (إِكْرَامُ أَهْلِ الْعِلْمِ وَتَوْقِيرُهِمْ) أي: إجلالهم وإكبارهم لما لهم من الفضل العظيم، والمنصب الجليل، فهم آباء الروح، (فَالشَّيْخُ أَبٌ لِلرُّوحِ كَمَا أَنَّ الْوَالِدَ أَبٌ لِلْجَسَدِ) والأبوة الروحية هي الأبوة في تلقِّي العلم.

قال ابن تيمية الحفيد: الشيخ والمعلِّم والمؤدِّب أبٌ للروح، والوالد أبٌ للجسد. ذكره تلميذه ابن القيم في «مدارج السالكين».

ثم ذكر عن شعبة قوله: (كُلُّ مَنْ سَمِعْتُ مِنْهُ حَدِيثًا فَأَنَا لَهُ عَبْدٌ) أي: أنا له ممتن حتىٰ أصير بمنزلة المملوك له، فإنه ملكه بما أسدىٰ إليه من الخير في التعليم.

وذكر استنباط هٰذا المعنىٰ من القرآن من كلام محمد بن علي الأُدفوي أنه قال: (إِذَا تَعَلَّمَ الْإِنْسَانُ مِنَ الْعَالِمِ وَاسْتَفَادَ مِنْهُ فَوَائِدَ فَهُوَ لَهُ عَبْدٌ؛ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ ﴾ [الْكَهْفُ:٦٠]، وَهُوَ

يُوشَعُ بْنُ نُونٍ، وَلَمْ يَكُنْ مَمْلُوكًا لَهُ، وَإِنَّمَا كَانَ مُتَلْمِذًا لَهُ، مُتَّبِعًا لَهُ، فَجَعَلَهُ اللهُ فَتَاهُ لِذَلِكَ). انتهىٰ كلامه.

ثم بيّن أن الشرع أمر (بِرِعَايَةِ حَقِّ الْعُلَمَاءِ إِكْرَامًا لَهُمْ وَتَوْقِيرًا وَإِعْزَازًا).

وذكر حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: « لَيْسَ مِنْ أُمَّتِي » وذكر أفرادًا حتىٰ قال: « وَيَعْرِفْ لِعَالِمِنَا حَقَّهُ » فالعالم له حق أثبتته الشريعة.

ومن المأثور عن الصدر الأول ما اتفق لابن عباس رضي الله عنهما من إمساكه بركاب زيد بن ثابت، والرِّكَاب: اسمٌ للإبل التي تُتَّخذ للرُّكوب من الرَّواحل، وإمساك ابن عباس له أي: أخذها بخطامها حتىٰ تتذلل وتلين لراكبها.

(فَقَالَ زَيْدٌ: أَتُمْسِكُ لِي وَأَنْتَ ابْنُ عَمِّ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: إِنَّا هكَذَا نَصْنَعُ بِالْعُلَمَاءِ.).

ثم نقل إجماع أهل العلم علىٰ توقير العلماء وإكرامهم عن ابن حزم الأندلسي.

ثم قال: (وَالْبَصِيرُ بِالْأَحْوَالِ السَّلَفِيَّةِ) أي: بما كان عليه سلف الأمة (يَقِفُ عَلَىٰ حَمِيدِ أَحْوَالِهِمْ فِي تَوْقِيرِ عُلَمَائِهِمْ) في الصّحابة والتابعين وأتباعهم، وذكر من شواهده ما يبيّن صِدْق المذكور عنهم.

ثم قال: (فَمِنَ الْأَدَبِ اللَّازِمِ لِلشَّيْخِ عَلَىٰ الْمُتَعَلِّمِ -مِمَّا يَدْخُلُ تَحْتَ هٰذَا الْأَصْلِ- التَّوَاضُعُ لَهُ، وَالْإِقْبَالُ عَلَيْهِ، وَعَدَمُ الِالْتِفَاتِ عَنْهُ، وَمُرَاعَاةُ أَدَبِ الْحَدِيثِ مَعَهُ، وَإِذَا حَدَّثَ عَنْهُ عَظَّمَهُ مِنْ غَيْرِ غُلُوٍّ بَلْ يُنْزِلُهُ مَنْزِلَتَهُ، لِئَلَّا يَشِينَهُ مِنْ حَيْثُ أَرَادَ أَنْ يَمْدَحَهُ، وَلْيَشْكُرْ تَعْلِيمَهُ وَيَدْعُ لَهُ وَلَا يُظْهِرِ الِاسْتِغْنَاءَ عَنْهُ وَلَا يُؤْذِهِ بِقَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ وَلْيَتَلَطَّفْ فِي تَنْبِيهِهِ عَلَىٰ خَطَئِهِ إِذَا وَقَعَتْ مِنْهُ زَلَّةٌ.).

ثم ذكر نبذة في معرفة الواجب تجاه زلة العالم، هي من عيون ما في هذه المُقيَّدَة، فإن زلة العالِم من طبْع العالَم فإن الله خلق الخلق وهم مقارِنون للخطيئة والسيّئة، فبُدُورُ زلَّةٍ من العالِم هو من الجِبلة الآدمية، والخليقة الطبعية التي جعل الله سبحانه وتعالى الناسَ عليها، فإذا صدر من أحد من العلماء زلَّة فإن مما يُرعىٰ معه إقامة هذه الأمور الستة:

وأولها: (التَّثَبُّتُ فِي صُدُورِ الزَّلَّةِ مِنْهُ)، أي: التحقق في كون المنقول عنه زلة هو مما صدر عنه، فلربما عُزي إلىٰ أحد زلة هو براء منها، فإن نقل الناس لا خطام له ولا زمام.

وثانيها: التثبت في كون تلك الزلة خطأ، وهذه وظيفة العلماء الراسخين فيُسألون عنها، فإن الأمر كما قال الأول:

وكم من عائب قولـه صحيحًا وآفاته من الفهم السقيم

والحكم على شيءٍ من أقوال العلماء وأفعالهم أنه خطأ هي وظيفة العلماء الراسخين. ذكره الشاطبي في الموافقات»، وابن رجب في جامع العلوم والحِكم، لأنها من جنس المتشابه الذي لا يميزه إلا الراسخ، فمخافة اشتباهها وتجاذب الحق والباطل في صورتها الظاهرة جعل أمر كشفها موكولًا إلى أهلها المحققين علمها من العلماء الراسخين، فإليهم المفزع في تحقيق ذلك الأمر الذي صدَر عن أحد من العلماء أنه زلّة من الزلات.

ثم ذكر الأمر الثالث: وهو (تَرْكُ اتِّبَاعِهِ فِيهَا)؛ فإن مَنْ زل لم يكن خطؤه سلمًا يُعتذَر به في متابعته، بل إذ تبين زَلَلُه وخطؤه لم يُتبع في ذلك.

ورابعها: (الْتِمَاسُ الْعُذْرِ لَهُ بِتَأْوِيلٍ سَائِغٍ)، أي: تطَلُّب ما يُحمَل عليه كلامه مما له مأخذ قوي في العلم، وإن رجح عند المتكلم غيره، فإن موارد العلم مما تتباين فيها الأنظار، وتختلف فيها معارف الرجال، فمَنْ بان له زلل عالم بحجة وبرهان اجتهد في التماس العذر له بتأويل ممكن، لأن العالم لا يُتصور منه قصْدُ الخطأ، فإنه لم يبتغ العلم إلا رجاء أن يقربه إلى الله ﷻ، فإذا صدرت منه زلة فالظن الحسن به أنه لم يرد تلك الزلة.

وخامسها: (بَذْلُ النُّصْحِ لَهُ بِلُطْفٍ وَسِرٍّ لَا عُنْفٍ وَلَا تَشْهِيرٍ)؛ لأن المقصود من بيان زلته رده عن خطئه، وبلوغ هذا الغرض يمكن باللطف والتيسير، أما العُنف والتشهير فربما حمله على التعصب لها والإصرار على خطئه.

ثم ذكر سادسها: وهو (حِفْظُ جَنَابِهِ)؛ والجناب: هو الجانب، والمراد به الْقَدْرُ، فيُحفظ قدره (فَلَا تُهْدَرُ كَرَامَتُهُ فِي) نفوس (الْـمُسْلِمِينَ)؛ بل يبقى ما له من رتبة والمنزلة عندهم، فإن الخطيئة مقارنة للآدمية.

وإذا صدر من أحد من الناس خطأ لم يحسن أن يُجعل غرضًا لإسقاطه وإهانته عند الناس، بل مَنْ ثبت مقامه في العلم والسُّنة حُفظ قدره تعظيمًا للشريعة.

ثم ذكر ختمًا (مِمَّا يُحْذَرُ) عنه ويُنأى (مِنْهُ مِمَّا يَتَّصِلُ بِتَوْقِيرِ الْعُلَمَاءِ مَا صُورَتُهُ التَّوْقِيرُ وَمَآلُهُ الْإِهَانَةُ وَالتَّحْقِيرُ)، فيكون مبتغيه قاصدًا توقير صاحب العلم؛ لكنه يعرضه للضيق والإهانة، كالذي اتفق من

ازدحام أصحاب الحديث علىٰ هشيم بن بشير الواسطي حتىٰ طرحوه عن حماره فكان سبب موته رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

الْمَعْقِدُ الْخَامِسَ عَشَرَ

رَدُّ مُشْكِلِهِ إِلَى أَهْلِهِ

فَالْمُعَظِّمُ لِلْعِلْمِ يُعَوِّلُ عَلَى دَهَاقِتِهِ وَالْجَهَابِذَةِ مِنْ أَهْلِهِ لِحَلِّ مُشْكِلَاتِهِ.

وَلَا يُعَرِّضُ نَفْسَهُ لِمَا لَا تُطِيقُ، خَوْفًا مِنَ الْقَوْلِ عَلَى اللهِ بِلَا عِلْمٍ، وَالْافْتِرَاءِ عَلَى الدِّينِ، فَهُو يَخَافُ سَخْطَةَ الرَّحْمَنِ قَبْلَ أَنْ يَخَافَ سَوْطَ السُّلْطَانِ فَإِنَّ الْعُلَمَاءَ بِعِلْمٍ تَكَلَّمُوا وَبِبَصَرٍ نَافِذٍ سَكَتُوا فَإِنْ تَكَلَّمُوا فِي مُشْكِلٍ فَتَكَلَّمْ بِكَلَامِهِمْ وَإِنْ سَكَتُوا عَنْهُ فَلْيَسَعْكَ مَا وَسِعَهُمْ.

وَمِنْ أَشَقِّ الْمُشْكِلَاتِ الْفِتَنُ الْوَاقِعَةُ وَالنَّوَازِلُ الْحَادِثَةُ الَّتِي تَتَكَاثَرُ مَعَ امْتِدَادِ الزَّمَنِ، وَالنَّاسُ فِي هَذَا الْبَابِ طَرَفَانِ وَوَسَطٌ فَقَوْمٌ أَعْرَضُوا عَنِ اسْتِفْتَاءِ الْعُلَمَاءِ فِيهَا وَفَزِعُوا إِلَى الْأَهْوَاءِ وَالْآرَاءِ يَسْتَمِدُّونَهَا مِنْ هَيَجَانِ الْخُطَبَاءِ وَرِقَّةِ الشُّعَرَاءِ وَتَحْلِيلَاتِ السِّيَاسِيِّينَ وَإِرْجَافَاتِ الْمُنَافِقِينَ، وَقَوْمٌ يَعْرِضُونَهَا عَلَى الْعُلَمَاءِ لَكِنَّهُمْ لَا يَرْتَضُونَ قَالَهُمْ وَلَا يَرْضَوْنَ مَقَالَهُمْ، فَكَأَنَّهُمْ طَلَبُوا جَوَابًا يُوَافِقُ هَوًى فِي نُفُوسِهِمْ فَلَمَّا لَمْ يَجِدُوهُ مَالُوا عَنْهُمْ.

وَالنَّاجُونَ مِنْ نَارِ الْفِتَنِ السَّالِمُونَ مِنْ وَهَجِ الْمِحَنِ هُمْ مَنْ فَزِعَ إِلَى الْعُلَمَاءِ وَلَزِمَ قَوْلَهُمْ، وَإِنِ اشْتَبَهَ عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ قَوْلِهِمْ أَحْسَنَ الظَّنَّ بِهِمْ، فَطَرَحَ قَوْلَهُ وَأَخَذَ بِقَوْلِهِمْ، فَالتَّجْرِبَةُ وَالْخِبْرَةُ هُمْ كَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَإِذَا اخْتَلَفَتْ أَقْوَالُهُمْ لَزِمَ قَوْلَ جُمْهُورِهِمْ وَسَوَادِهِمْ إِيثَارًا لِلسَّلَامَةِ فَالسَّلَامَةُ لَا يَعْدِلُهَا شَيْءٌ.

وَمَا أَحْسَنَ قَوْلَ ابْنِ عَاصِمٍ فِي «مُرْتَقَى الْوُصُولِ»:

وَوَاجِبٌ فِي مُشْكِلَاتِ الْفَهْمِ … تَحْسِينُنَا الظَّنَّ بِأَهْلِ الْعِلْمِ

وَمِنْ جُمْلَةِ الْمُشْكِلَاتِ رَدُّ زَلَّاتِ الْعُلَمَاءِ، وَالْمَقَالَاتِ الْبَاطِلَةِ لِأَهْلِ الْبِدَعِ وَالْمُخَالِفِينَ، فَإِنَّمَا يَتَكَلَّمُ فِيهَا الْعُلَمَاءُ الرَّاسِخُونَ كَمَا بَيَّنَهُ الشَّاطِبِيُّ فِي «الْمُوَافَقَاتِ» وَابْنُ رَجَبٍ فِي «جَامِعِ الْعُلُومِ وَالْحِكَمِ» وَإِذَا تَعَرَّضَتْ النَّاشِئَةُ وَالدَّهْمَاءُ لِلدُّخُولِ فِي هَذَا الْبَابِ تَوَلَّدَتْ فِتَنٌ وَبَلَايَا، كَمَا هُوَ مُشَاهَدٌ فِي عَصْرِنَا فَإِنَّمَا نَشَأَتْ كَثِيرٌ مِنَ الْفِتَنِ حِينَ تَعَرَّضَ لِلرَّدِّ عَلَى زَلَّاتِ الْعُلَمَاءِ وَالْمَقَالَاتِ الْمُخَالِفَةِ لِلشَّرِيعَةِ بَعْضُ النَّاشِئَةِ الْأَغْمَارِ، وَالْجَادَّةُ السَّالِمَةُ عَرْضُهَا عَلَى الْعُلَمَاءِ الرَّاسِخِينَ وَالِاسْتِمْسَاكُ بِقَوْلِهِمْ فِيهَا.

ذكر المصنف وفقه الله (**الْمَعْقِدَ الْخَامِسَ عَشَرَ**) من معاقد تعظيم العلم، وهو (**رَدُّ مُشْكِلِهِ إِلَى أَهْلِهِ**) ومشكل العلم ما غمُض منه وتعارضت فيه البيِّنات، فمن تعظيم العلم ردّ ما كان على هذه الصفة من الغموض وتعارض البينات إلى أهل العلم، والحال كما قال: (**فَالْمُعَظِّمُ لِلْعِلْمِ يُعَوِّلُ عَلَى دَهَاقِتِهِ**

وَالْجَهَابِذَةِ مِنْ أَهْلِهِ لِحَلِّ مُشْكِلَاتِهِ) والدهاقنة والجهابذة: وصفان لأهل العلم؛ فالدهاقنة: جمع دِهقان: بكسر الدال وتُضم، وذُكر الفتح أيضًا، وهو: قوي التَّصرُّف في حِدّة، أصله أعجمي ثم عُرِّب.

ومثله أيضًا الجهابذة، فإنه جمع جِهْبِذ بكسر الجيم، وهو النَّقَّاد الخبير ببواطن الأمور.

فالمرء يرد ما أشكل من العلم إلىٰ المتَّصفين بهذه الرتبة من أهله، ولا يُعرِّض نفسه لما لا تطيق، أي: من كَلَفة سؤال الله ﷻ خوفًا من القول علىٰ الله بلا علم، والافتراء علىٰ الدِّين، فالمرء يُحجم عن المخاطرة بدينه في ابتداء القول في شيءٍ من المشكلات مع وجود العلماء الرَّاسخين المتكفِّلين ببيانه.

ثم قال: (فَهُو يَخَافُ سَخْطَةَ الرَّحْمَنِ قَبْلَ أَنْ يَخَافَ سَوْطَ السُّلْطَانِ) فالحامل له علىٰ إحجامه هو تعظيم الله وإجلالُه، ألّا يتكلم في دين الله ﷻ بشيء تعظُم عليه تبعته في الدنيا والآخرة.

ثم ذكر حال العلماء فقال: (فَإِنَّ الْعُلَمَاءَ) أي: من أئمة الهدىٰ (بِعِلْمٍ تَكَلَّمُوا وَبِبَصَرٍ نَافِذٍ سَكَتُوا) فإنهم إذا صدر منهم كلام فمنشؤه العلم، وإذا سكتوا عن أمر لَجَّ فيه الناس فمنشأ سكوتهم البصر النافذ أي: العقل الكامل، فإنه يكون لهم من كمال المعرفة والخبرة مع طول المدة وكثرة التجربة ما لا يكون لغيرهم ممَنْ هو أصغر منهم علمًا وإن كان هو في أعين الناس أعظم علمًا.

ثم قال: (فَإِنْ تَكَلَّمُوا فِي مُشْكِلٍ فَتَكَلَّمْ بِكَلَامِهِمْ وَإِنْ سَكَتُوا عَنْهُ فَلْيَسَعْكَ مَا وَسِعَهُمْ.) لأن السلامة لا يعدلها شيء، والسلامة التي لا تُعدلُ حادِيها الخوف من الله ﷻ، أن يتكلم المرء بشيء في دين الله، فإذا أوقفه الله ﷷ بين يديه فسأله لم يجد لنفسه مخرجًا، وربما ظهرت ندامته علىٰ قوله في الدنيا، بتأسفه علىٰ صدور كلام منه جرَّ إلىٰ إراقة الدِّماء وترويع الآمنين، وهتك العورات.

وكان يسعه من السلامة الدينية أن يكِل الأمر إلىٰ العلماء الرَّاسخين العارفين بهذا.

ثم ذكر بعد أن (مِنْ أَشَقِّ الْمُشْكِلَاتِ) التي تغمض علىٰ الناس (الْفِتَنُ الْوَاقِعَةُ وَالنَّوَازِلُ الْحَادِثَةُ الَّتِي تَتَكَاثَرُ مَعَ امْتِدَادِ الزَّمَنِ).

ثم بيّن أقسام الناس فيها فقال: (وَالنَّاسُ فِي هٰذَا الْبَابِ طَرَفَانِ وَوَسَطٌ) فهم ثلاثة أقسام:

فالقسم الأول: (قَوْمٌ أَعْرَضُوا عَنِ اسْتِفْتَاءِ الْعُلَمَاءِ فِيهَا وَفَزِعُوا إِلَىٰ الْأَهْوَاءِ وَالْآرَاءِ يَسْتَمِدُّونَهَا مِنْ هَيَجَانِ الْخُطَبَاءِ وَرِقَّةِ الشُّعَرَاءِ وَتَحْلِيلَاتِ السِّيَاسِيِّينَ وَإِرْجَافَاتِ الْمُنَافِقِينَ)، فهو يُغمض عينه ويُصِمّ أذنه عن قول العلماء فيها، ويلتمس من غيرهم ما يوافق رغبته وهواه.

والقسم الثاني: (قَوْمٌ يَعْرِضُونَهَا عَلَىٰ الْعُلَمَاءِ) ليظهروا منهم بما يوافق ما في نفوسهم، ثم تكون حالهم أنهم (لَا يَرْتَضُونَ قَالَهَمْ وَلَا يَرْضَوْنَ مَقَالَهَمْ، فَكَأَنَّهُمْ طَلَبُوا جَوَابًا يُوَافِقُ هَوًىٰ فِي نُفُوسِهِمْ فَلَمَّا لَمْ يَجِدُوهُ مَالُوا عَنْهُمْ.)

ثم ذكر القسم الثالث فقال: (وَالنَّاجُونَ مِنْ نَارِ الْفِتَنِ السَّالِمُونَ مِنْ وَهَجِ الْمِحَنِ هُمْ مَنْ فَزِعَ إِلَىٰ الْعُلَمَاءِ وَلَزِمَ قَوْلَهُم، وَإِنِ اشْتَبَهَ عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ قَوْلِهِمْ أَحْسَنَ الظَّنَّ بِهِمْ، فَطَرَحَ قَوْلَهُ وَأَخَذَ بِقَوْلِهِمْ، فَالتَّجْرِبَةُ وَالْخِبْرَةُ هُمْ كَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَإِذَا اخْتَلَفَتْ أَقْوَالُهُمْ لَزِمَ قَوْلَ جُمْهُورِهِمْ وَسَوَادِهِمْ إِيثَارًا لِلسَّلَامَةِ فَالسَّلَامَةُ لَا يَعْدِلُهَا شَيْءٌ.)

والمراد بالسلامة: السلامة الدينية.

فكم من امرئ هتك دينَه بإقدامه علىٰ هذه النوازل، وتَجَرُّئِهِ عليها فعرّض دينه لما بدده وفرقه، فخرج من التوحيد إلىٰ الشرك، أو من السُّنة إلىٰ البدعة، أو من الطاعة إلىٰ المعصية بجريرة جراءته بالقول في المشكلات علىٰ ما لا طاقة له به.

وقوله: (السَّالِمُونَ مِنْ وَهَجِ الْمِحَنِ) المراد بالوهج: حر النار، ونار المحن لها حر.

ثم قال بعد: (وَمِنْ جُمْلَةِ الْمُشْكِلَاتِ) أي: الأمور التي تغمض وتتعارض فيها البينات (رَدُّ زَلَّاتِ الْعُلَمَاءِ، وَالْمَقَالَاتِ الْبَاطِلَةِ لِأَهْلِ الْبِدَعِ وَالْمُخَالِفِينَ، فَإِنَّمَا يَتَكَلَّمُ فِيهَا الْعُلَمَاءُ الرَّاسِخُونَ كَمَا بَيَّنَهُ الشَّاطِبِيُّ فِي «الْمُوَافَقَات» وَابْنُ رَجَبٍ فِي «جَامِعِ الْعُلُومِ») لأنها من جنس المتشابه الذي لا يترشح له إلا الراسخ في العلم.

وللشاطبي كلام منثور واسع الأطراف في «الموافقات» و«الاعتصام» في بيان ذلك، وأما ابن رجب فإنه ذكر هذا في «جامع العلوم والحِكم» فقال في أوفىٰ بيان: (ومن أنواع النصح لله تعالىٰ وكتابه ورسوله ﷺ وهو مما يختص بالعلماء رد الأهواء المضلة بالكتاب والسُّنة، وبيان دلالتهما علىٰ ما يخالف الأهواء كلّها، وكذلك الأقوال الضعيفة من زلّات العلماء وبيان دلالة الكتاب والسُّنة علىٰ ردها). انتهىٰ كلامه.

لأن مَنْ لم ترسخ قدمه في العلم ربما رد البدعة ببدعة، فالعلماء هم المتكفِّلون برد هذا، وطلاب العلم ينقلون كلام العلماء، فإذا رأىٰ طالب العلم بدعةً في بلده نظر في كلام العلماء فيها مما تلقاه عنهم

فرد بما ذكروا، فإن كانت البدعة التي ظهَرت لا علم له بها، ولا خبرة بوجود ردٍّ للعلماء فيها فزع إلىٰ العلماء فسألهم.

فطلّاب العلم في رد البدع بمنزلة المبلِّغين أقوال العلماء ليسلموا من رد بدعة ببدعةٍ، أو زيادة الشر وهم يريدون تخفيفه فإنّ للعالم من الرسوخ ما يبين له الحق ويُبينه بأيسر سبيل.

ثم ذكر الحال التي صار الناس عليها بقوله: (وَإِذَا تَعَرَّضَتْ النَّاشِئَةُ وَالدَّهْمَاءُ لِلدُّخُولِ فِي هٰذَا الْبَابِ تَوَلَّدَتْ فِتَنٌ وَبَلَايَا، كَمَا هُوَ مُشَاهَدٌ فِي عَصْرِنَا فَإِنَّمَا نَشَأَتْ كَثِيرٌ مِنَ الْفِتَنِ حِينَ تَعَرَّضَ لِلرَّدِّ عَلَىٰ زَلَّاتِ الْعُلَمَاءِ وَالْمَقَالَاتِ الْمُخَالِفَةِ لِلشَّرِيعَةِ بَعْضَ النَّاشِئَةِ الأَغْمَارِ، وَالْجَادَّةُ السَّالِمَةُ عِرْضُهَا عَلَىٰ الْعُلَمَاءِ الرَّاسِخِينَ وَالِاسْتِمْسَاكُ بِقَوْلِهِمْ فِيهَا.).

وأصل هذا في آثار السلف ما اتفق من حال أبي موسىٰ الأشعري مع أهل الحِلق الذين رآهم مجتمعين في المسجد يسبحون ويحمدون ويهللون، فأحجم عن الإنكار عليهم وففزع إلىٰ ابن مسعود، ولما أخبر ابن مسعود سأله ابن مسعود ماذا رأيت؟، فقال: رأيت خيرًا، فلم يبادر أبو موسىٰ الأشعري إلىٰ إنكار ذلك، وردّه إلىٰ مَنْ هو عند أهل الكوفة أرسخ قدمًا، وأثبت علمًا في معرفة السُّنة والبدعة، فكان من مقام ابن مسعودٍ الحَمِيد في ردّ تلك البدعة ما لم يكن لأبي موسىٰ الأشعري وهو السابق بعلمها، والاطلاع علىٰ أحوال أهلِها، فصار أصلًا في رد كشف هذه المُعضلات من البدع الحادثات إلىٰ العلماء الراسخين.

وقوله: (الأَغْمَارِ) قول: غُمْر، بضم الغين وسكون الميم، وتُضم أيضًا، فيقال: غُمُر، وهو الذي لم يجرب الأمور، ولم يطلع علىٰ حقائقها.

الْمَعْقِدُ السَّادِسَ عَشَرَ
تَوْقِيرُ مَجَالِسِ الْعِلْمِ وَإِجْلَالُ أَوْعِيَتِهِ

فَمَجَالِسُ الْعُلَمَاءِ كَمَجَالِسِ الْأَنْبِيَاءِ.

قَالَ سَهْلُ بْنُ عَبْدِ الله: مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَىٰ مَجَالِسِ الْأَنْبِيَاءِ فَلْيَنْظُرْ إِلَىٰ مَجَالِسِ الْعُلَمَاءِ، يَجِيءُ الرَّجُلُ فَيَقُولُ: يَا فُلَان أَيُّ شَيْءٍ تَقُولُ فِي رَجُلٍ حَلَفَ عَلَىٰ امْرَأَتِه بِكَذَا وَكَذَا؟ فَيَقُولُ: طَلَقَتْ امْرَأَتُه، وَيَجِيءُ آخَرَ فَيَقُولُ: مَا تَقُولُ فِي رَجُلٍ حَلَفَ عَلَىٰ امْرَأَتِهِ بِكَذَا وَكَذَا، فَيَقُولُ: لَيْسَ يَحْنَثُ بِهَذَا الْقَولِ، وَلَيْسَ هَـٰذَا إِلَّا لِنَبِيٍّ أَوْ لِعَالِمٍ فَاعْرِفُوا لَهُمْ ذَلِكَ.

وَقَالَ مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ: إِنَّ مَجَالِسَ الْعُلَمَاءِ تُحْتَضَنُ بِالْخُشُوعِ وَالسَّكِينَةِ وَالْوَقَارِ.

وَقَدْ كَانَ مَالِكٌ رَحِمَهُ اللهُ إِذَا أَرَادَ أَنْ يُحَدِّثَ تَوَضَّأَ وَجَلَسَ عَلَىٰ صَدْرِ فِرَاشِهِ وَسَرَّحَ لِحْيَتَهُ وَتَمَكَّنَ مِنْ جُلُوسِهِ بِوَقَارٍ وَهَيْبَةٍ ثُمَّ حَدَّثَ.

وَكَانَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْن مَهْدِي لَا يُتَحَدَّثُ فِي مَجْلِسِهِ وَلَا يُبْرَىٰ فِيهِ قَلَمٌ وَلَا يَتَبَسَّمُ فِيهِ أَحَدٌ.

وَكَانَ وَكِيعُ بْنُ الْجَرَّاحِ فِي مَجْلِسِهِ كَأَنَّهُمْ فِي صَلَاةٍ.

فَعَلَىٰ طَالِبِ الْعِلْمِ أَنْ يَعْرِفَ لِمَجَالِسِ الْعِلْمِ حَقَّهَا فَيَجْلِسُ فِيهَا جِلْسَةَ الْأَدَبِ وَيُصْغِي إِلَىٰ الشَّيْخِ نَاظِرًا إِلَيْهِ لَا يَلْتَفِتُ عَنْهُ مِنْ غَيْرِ ضَرُورَةٍ وَلَا يَضْطَرِبُ لِضَجَّةٍ يَسْمَعُهَا، وَلَا يَعْبَثُ بِيَدَيْهِ أَوْ رِجْلَيْهِ، وَلَا يَسْتَنِدُ بِحَضْرَةِ شَيْخِهِ، وَلَا يَتَكِئُ عَلَىٰ يَدِهِ، وَلَا يُكْثِرُ التَّنَحْنُحَ وَالْحَرَكَةَ، وَلَا يَتَكَلَّمُ مَعَ جَارِهِ، وَإِذَا عَطَسَ خَفَضَ صَوْتَهُ، وَإِذَا تَثَاءَبَ سَتَرَ فَمَهُ بَعْدَ رَدِّهِ جَهْدَهُ.

وَيَنْضَمُّ إِلَىٰ تَوْقِيرِ مَجَالِسِ الْعِلْمِ إِجْلَالُ أَوْعِيَتِهِ الَّتِي يَحْفَظُ فِيهَا وَعِمَادُهَا الْكُتُبُ، فَاللَّائِقُ بِطَالِبِ الْعِلْمِ: صَوْنُ كِتَابِهِ، وَحِفْظِهِ وَإِجْلَالِهِ، وَالاعْتِنَاءُ بِهِ، فَلَا يَجْعَلُهُ صُنْدُوقًا يَحْشُوهُ بِوَدَائِعِهِ وَلَا يَجْعَلْهُ بُوقًا، وَإِذَا وَضَعَهُ وَضَعَهُ بِلُطْفٍ وَعِنَايَةٍ.

رَمَىٰ إِسْحَاقُ بْنُ رَاهَوَيْه يَوْمًا بِكِتَابٍ فِي يَدِهِ فَرَآهُ أَبُو عَبْدِ الله أَحْمَدَ ابْنُ حَنْبَلٍ فَغَضِبَ وَقَالَ: أَهَكَذَا يُفْعَلُ بِكَلَامِ الْأَبْرَارِ.

وَلَا يَتَّكِئُ عَلَىٰ الْكِتَابِ أَوْ يَضَعُهُ عِنْدَ قَدَمَيْهِ وَإِذَا كَانَ يَقْرَأُ فِيهِ عَلَىٰ شَيْخٍ رَفَعَهُ عَنِ الْأَرْضِ وَحَمَلَهُ بِيَدَيْهِ.

ذكر المصنف وفقه الله (الْمَعْقِدُ السَّادِسَ عَشَرَ) من معاقد تعظيم العلم وهو: (تَوْقِيرُ مَجَالِسِ

الْعِلْمِ) أي: إجلالها وإعظامها، (وَإِجْلَالُ أَوْعِيَتِهِ) والأوعية: ما يُحفَظ فيه العلم من كتاب ونحوه.

والدَّاعي إلىٰ هذا المعقد: هو أن (مَجَالِسُ الْعُلَمَاءِ كَمَجَالِسِ الْأَنْبِيَاءِ)، فإن العلم ميراث النبوة.

وذكر من الآثار السلفية ما يبين هذا، ثم قال: (فَعَلَىٰ طَالِبِ الْعِلْمِ أَنْ يَعْرِفَ لِمَجَالِسِ الْعِلْمِ حَقَّهَا) وهو ما ثبت بطريق الشرع لا بالطول والذَّرْع.

وذكر من أنحاء ذلك ووجوهه: أن (يَجْلِسُ فِيهَا جِلْسَةَ الْأَدَبِ وَيُصْغِي إِلَىٰ الشَّيْخِ نَاظِرًا إِلَيْهِ لَا يَلْتَفِتُ عَنْهُ مِنْ غَيْرِ ضَرُورَةٍ وَلَا يَضْطَرِبُ لِضَجَّةٍ يَسْمَعُهَا) إلىٰ آخر ما ذكره من الآداب اللائقة بمجلس العلم.

ثم قال: (وَيَنْضَمُّ إِلَىٰ تَوْقِيرِ مَجَالِسِ الْعِلْمِ إِجْلَالُ أَوْعِيَتِهِ الَّتِي يَحْفَظُ فِيهَا وَعِمَادُهَا الْكُتُبُ، فَاللَّائِقُ بِطَالِبِ الْعِلْمِ: صَوْنُ كِتَابِهِ، وَحِفْظُهُ وَإِجْلَالُهُ، وَالاعْتِنَاءُ بِهِ، فَلَا يَجْعَلْهُ صُنْدُوقًا يَحْشُوهُ بِوَدَائِعِهِ) أي: يملؤه بما يودعه فيه من أشياء يدخرها مكنوزة بوسطه. (وَلَا يَجْعَلْهُ بُوقًا) بأنه يلفّه حتىٰ يكون في صورة البوق الذي يُنفخ فيه. (وَإِذَا وَضَعَهُ وَضَعَهُ بِلُطْفٍ وَعِنَايَةٍ) إكبارًا وإجلالًا له.

وذكر ما اتّفق أن إسحاق بن راهويه رمىٰ يومًا بكتاب كان في يده فغضب أبو عبد الله أحمد ابن حنبل وقال: (أَهَكَذَا يُفْعَلُ بِكَلَامِ الْأَبْرَارِ.).

وهذه الغضبة الغضنفرية والصعقة الأثرية موجبها أن يكون فيه كلام الأبرار، فكيف إذا كان فيه كلام الله أو كلام رسوله ﷺ؟، فالكُتب التي بأيدينا مملوءة بالآيات القرآنية والأحاديث النَّبوية فحقُّها إعظامها وإجلالها.

ومن جملة الأدب معها ألا يتكئ علىٰ الكتاب، أو يضعه عند قدميه، وإذا كان يقرأ فيه علىٰ شيخ رفعه عن الأرض وحمله بيديه توقيرًا وإجلالًا له.

الْمَعْقِدُ السَّابِعَ عَشَرَ
الذَّبُّ عَنِ الْعِلْمِ وَالذَّوْدُ عَنْ حِيَاضِهِ

فَإِنَّ لِلْعِلْمِ حُرْمَةً وَافِرَةً تُوجِبُ الانْتِصَارَ لَهُ إِذَا تُعُرِّضَ لِجَنَابِهِ بِمَا لَا يَصْلُحُ.

وَقَدْ ظَهَرَ هٰذَا الانْتِصَارُ عِنْدَ أَهْلِ الْعِلْمِ فِي مَظَاهِرَ مِنْهَا:

الرَّدُّ عَلَىٰ الْـمُخَالِفِ، فَمَنِ اسْتَبَانَتْ مُخَالَفَتُه لِلشَّرِيعَةِ رُدَّ عَلَيْهِ كَائِنًا مَنْ كَانَ حَمِيَّةً لِلدِّينِ وَنَصِيحَةً لِلْمُسْلِمِينَ، وَلَمْ يَزَلِ النَّاسُ يَرُدُّ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ -كَمَا قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدَ-؛ لَكِنَّ الْـمُرَشَّحَ لِذَلِكَ هُمُ الْعُلَمَاءُ لَا الدَّهْمَاءُ مَعَ لُزُومِ الْأَدَبِ وَتَرْكِ الْجَوْرِ وَالظُّلْمِ.

وَمِنْهَا: هَجْرُ الْـمُبْتَدِعِ - ذَكَرَهُ أَبُو يَعْلَىٰ الْفَرَّاءِ إِجْمَاعًا- فَلَا يُؤْخَذُ الْعِلْمُ عَنْ أَهْلِ الْبِدَعِ؛ لَكِنْ إِذَا اضْطُرَّ إِلَيْهِ فَلَا بَأْسَ كَمَا فِي الرِّوَايَةِ عَنْهُمْ لَدَى الْـمُحَدِّثِينَ.

وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ شَيْخُ الْإِسْلامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ الْـحَفِيدُ -مُقَرِّرًا أَصْلًا كَبِيرًا تَعْظُمُ الْـحَاجَةُ إِلَيْهِ فِي أَزْمِنَةِ الْـجَاهِلِيَّةِ وَالْفِتَنِ- : فَإِذَا تَعَذَّرَ إِقَامَةُ الْوَاجِبَاتِ مِنَ الْعِلْمِ وَالْجِهَادِ وَغَيْرِ ذَلِكَ إِلَّا بِمَنْ فِيهِ بِدْعَةٌ مَضَرَّتُهَا دُونَ مَضَرَّةِ ذَلِكَ الْوَاجِبِ كَانَ تَحْصِيلُ مَصْلَحَةِ الْوَاجِبُ مَعَ مَفْسَدَةٍ مَرْجُوحَةٍ خَيْرًا مِنَ الْعَكْسِ.

وَمِنْهَا: زَجْرُ الْمُتَعَلِّمِ إِذَا تَعَدَّىٰ فِي بَحْثِهِ أَوْ ظَهَرَ مِنْهُ لَدَدٌ أَوْ سُوءُ أَدَبٍ.

كَانَ عَبْدُ الرَّحمَنِ بْن مَهْدِي إِنْ تَحَدَّث أَحَدٌ فِي مَجْلِسِهِ أَوْ بُرِيَ قَلَمٌ صَاحَ وَلَبِسَ نَعْلَيْهِ وَدَخَلَ.

وَكَانَ وَكِيعٌ إِذَا أَنْكَرِ مِن أَمْرِ جُلَسَائِه شَيْئًا انْتَعَل وَدَخل.

وَشُهِدَ هٰذَا مِرَارًا مِنْ شَيْخِ شُيُوخِنَا مُحَمَّدِ بْن إِبْرَاهِيمَ آلَ الشَّيْخِ فَكَمْ مَرَّةً رُئِيَ مُنْصَرِفًا لَمَّا سَمِعَ طَالِبًا يَتَشَدَّقُ فِي مَقَالِهِ فَأَخَذَ نَعْلَيْهِ وَانْصَرَفَ.

وَحضَرَ شَابٌّ مَجْلِسَ سُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ فَجعَلَ يَتَرَأَّسُ وَيَتَكَلَّمُ وَيَتَكَبَّرُ بِالْعِلْمِ، فَغَضِبَ سُفْيَانُ وَقَالَ: لَمْ يَكُنِ السَّلَفُ هَكَذَا، لَمْ يَكُنِ السَّلَفُ هكَذَا، كَانَ أَحَدُهُمْ لَا يَدَّعِي الْإِمَامَةَ وَلَا يَجْلِسُ فِي الصَّدْرِ حَتَّىٰ يَطْلُبَ هٰذَا الْعِلْمَ ثَلَاثِينَ سَنَةً، وَأَنْتَ تَتَكَبَّرُ عَلَىٰ مَنْ هُوَ أَسَنُّ مِنْكَ، قُمْ عَنِّي! وَلَا أَرَاكَ تَدْنُو مِنْ مَجْلِسِي.

وَكَانَ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ: إِذَا رَأَيْتَ الشَّابَّ يَتَكَلَّمُ عِنْدَ الْمَشَايِخِ وَإِنْ كَانَ قَدْ بَلَغَ مِنَ الْعِلْمِ مَبْلَغًا فَآيِسْ مِنْ خَيْرِهِ فَإِنَّهُ قَلِيلُ الْحَيَاءِ.

وَإِنِ احْتَاجَ الْمُعَلِّمُ إِلَىٰ إِخْرَاجِ الْمُتَعَلِّمِ مِنْ مَجْلِسِهِ زَجْرًا لَهُ فَلْيَفْعَلْ؛ كَمَا فَعَلَ سُفْيَانُ وَكَمَا كَانَ يَفْعَلُهُ شُعْبَةُ رَحِمَهُ اللَّهُ مَعَ عَفَّانَ بْنَ مُسْلِمٍ فِي دَرْسِهِ.

وَقَد يُزْجَرُ الْـمُتَعَلِّمُ بِعَدَمِ الْإِقْبَالِ عَلَيْهِ وَتَرْكِ إِجَابَتِهِ، فَالسُّكُوتُ جَوَابٌ؛ قَالَهُ الْأَعْمَشُ.

وَرَأَيْنَا هٰذَا كَثِيرًا مِنْ جَمَاعَةٍ مِنَ الشُّيُوخِ مِنْهُمُ الْعَلَّامَةُ ابْنُ بَازٍ رَحِمَهُ اللهُ رُبَّمَا سَأَلَه سَائِلٌ عَمَّا لَا يَنْفَعُهُ فَتَرَكَ الشَّيْخُ إِجَابَتَهُ، وَأَمَرَ الْقَارِئَ أَنْ يُوَاصِلَ قِرَاءَتَهُ أَوْ أَجَابَهُ بِخِلَافِ قَصْدِهِ.

ذكر المصنف وفقه الله (الْمَعْقِدُ السَّابِعَ عَشَرَ) من معاقد تعظيم العلم، وهو: (الذَّبُّ عَنِ الْعِلْمِ) أي: الدفاع عنه، (وَالذَّوْدُ عَنْ حِيَاضِهِ) أي: الحيلولةُ دون موارده من العلماء والتَّصانيف لما للعلم من حرمةٍ وافرة توجب الانتصار له.

وذكر جملة من مظاهر انتصار أهل العلم له منها: (الرَّدُّ عَلَىٰ الْـمُخَالِفِ، فَمَنِ اسْتَبَانَتْ مُخَالَفَتُه لِلشَّرِيعَةِ رُدَّ عَلَيْهِ كَائِنًا مَنْ كَانَ حَمِيَّةً لِلدِّينِ وَنَصِيحَةً لِلْمُسْلِمِينَ) قال الإمام أحمد: (وَلَمْ يَزَلِ النَّاسُ يَرُدُّ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ) فليس ردُّ القول المخالف الدليل من هُجر القول؛ بل هذا أصل مقرر وثيق في الشرع، وهو من وظائف العُلماء، فهم المرشحون لذلك دون الدهماء.

والدهماء: هم العامة.

سموا دهماء: لأنهم قد غطوا الأرض، فأصل الدهم: التغطية، وأكثر أهل الأرض من قبل ومن بعد هم من العوام الدهماء.

ومنها: (هَجْرُ الْـمُبْتَدِعِ .. إِجْمَاعًا)؛ فإن مما يُحفظ به العلم أن يُهجر أهل البدع فلا يُؤخذ العلم عنهم، فالأصل تركُهم والإعراض عنهم؛ لكن إن اضُّطر إليه فلا بأس كأن يكون في دراسة نظامية لا سبيل له إلىٰ التّخلي من الأخذ عن الممسوس ببدعة، أو غيْر ذلك من الأحوال وَفق المقرر عند المحدثين في الرواية عن أهل البدع.

وتتأكد مراعاة هذا في أزمنة الجاهلية والفتن كما هو المذكور في الكلام المنقول عن ابن تيمية الحفيد.

(وَمِنْهَا: زَجْرُ الْمُتَعَلِّمِ إِذَا تَعَدَّىٰ فِي بَحْثِهِ أَوْ ظَهَرَ مِنْهُ لَدَدٌ)، أي: خصومة شديدة، (أَوْ سُوءُ أَدَبٍ) فإنه يُزجر إذا بدر منه شيء من ذلك.

وذكر من أحوال السلف ما كان عليه عبد الرَّحمٰن بن مهدي وما كان عليه وكيع.

ثم قال: (وَشُهِدَ هٰذَا مِرَارًا مِنْ شَيْخِ شُيُوخِنَا مُحَمَّدِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ آلَ الشَّيْخِ فَكَمْ مَرَّةً رُئِيَ مُنْصَرِفًا لَمَّا

سَمِعَ طَالِبًا يَتَشَدَّقُ فِي مَقَالِهِ فَأَخَذَ نَعْلَيْهِ وَانْصَرَفَ) فزجرهم بالإعراض عنهم.

ثم ذكر قول سفيان لما بدر من شاب طلب الرئاسة بالكلام والتكبر في العلم: (لَمْ يَكُنِ السَّلَفُ هَكَذَا، لَمْ يَكُنِ السَّلَفُ هَكَذَا، كَانَ أَحَدُهُمْ لَا يَدَّعِي الْإِمَامَةَ وَلَا يَجْلِسُ فِي الصَّدْرِ) أي: في المقدَّم من المجلس(حَتَّىٰ يَطْلُبَ هٰذَا الْعِلْمَ ثَلَاثِينَ سَنَةً، وَأَنْتَ تَتَكَبَّرُ عَلَىٰ مَنْ هُوَ أَسَنُّ مِنْك، قُمْ عَنِّي! وَلَا أَرَاكَ تَدْنُو مِنْ مَجْلِسِي.)

ثم ذكر عنه قوله: (إِذَا رَأَيْتَ الشَّابَّ يَتَكَلَّمُ عِنْدَ الْمَشَايِخِ) يعني بين أيدي أهل العلم الكبار (وَإِنْ كَانَ قَدْ بَلَغَ مِنَ الْعِلْمِ مَبْلَغًا فَآيِسْ مِنْ خَيْرِهِ فَإِنَّهُ قَلِيلَ الْحَيَاءِ.) ومَنْ قلَّ حياؤه قلَّ ورعه، وإذا قلّ الورع سُلب العبد العلم.

ثم قال: (وَإِنِ احْتَاجَ الْمُعَلِّمُ إِلَىٰ إِخْرَاجِ الْمُتَعَلِّمِ مِنْ مَجْلِسِهِ زَجْرًا لَهُ فَلْيَفْعَلْ) أي: إذا رأىٰ أن المنفعة له ولغيره أن يخرجه من مجلسه فينهاه عن حضور هذا المجلس فليفعل، فإن هذا من حفظ العلم والانتصار له.

وذكر من المأثور في فعله عن بعض السلف، ثم قال: (وَقَدْ يُزْجَرُ الْمُتَعَلِّمُ بِعَدَمِ الْإِقْبَالِ عَلَيْهِ وَتَرْكِ إِجَابَتِهِ، فَالسُّكُوتُ جَوَابٌ؛ قَالَهُ الْأَعْمَشُ. وَرَأَيْنَا هٰذَا كَثِيرًا مِنْ جَمَاعَةٍ مِنَ الشُّيُوخِ مِنْهُمْ الْعَلَّامَةُ ابْنُ بَازٍ رَحِمَهُ اللهُ رُبَّمَا سَأَلَه سَائِلٌ عَمَّا لَا يَنْفَعُهُ فَتَرَكَ الشَّيْخُ إِجَابَتَهُ) أي: أعرض عن إجابته (وَأَمَرَ الْقَارِئَ أَنْ يُوَاصِلَ قِرَاءَتَهُ أَوْ أَجَابَهُ بِخِلَافِ قَصْدِهِ.) تأديبًا له وحفظًا لحرمة العلم، فإن مجرد صدور السؤال لا يُستحق به الجواب قال ابن مسعود: مَنْ أفتىٰ الناس في كل ما يسألونه فهو مجنون. رواه الدارمي.

فمن الأسئلة ما يكون حقه الإعراض عنه.

ومَنْ صحب العلماء وتزَكَّىٰ بأحوالهم رأىٰ هذا ظاهرًا فيهم.

الْمَعْقِدُ الثَّامِنَ عَشَرَ
التَّحَفُّظُ فِي مَسْأَلَةِ الْعَالِم

فِرَارًا مِنْ مَسَائِلِ الشَّغْبِ وَحِفْظًا لِهَيْبَةِ الْعَالِـمِ فَإِنَّ مِنَ السُّؤَالِ مَا يُرَادُ بِهِ التَّشْغِيبُ وَإِيْقَاظُ الْفِتْنَةِ وَإِشَاعَةُ السُّوءِ، وَمَنْ آنَسَ مِنْهُ الْعُلَمَاءُ هٰذِهِ الْـمَسَائِلَ لَقِيَ مِنْهُمْ مَا لَا يُعْجِبُهُ كَمَا مَرَّ مَعَكَ فِي زَجْرِ الْـمُتَعَلِّمِ فَلَابُدَّ مِنَ التَّحَفُّظِ فِي مَسْأَلَةِ الْعَالِمِ وَلَا يُفْلِحُ فِي تَحَفُّظِهِ فِيهَا إِلَّا مَن أَعْمَلَ أَرْبَعَةَ أُصُولٍ:

أَوَّلُهَا: الْفِكْرُ فِي سُؤَالِهِ لِمَاذَا يَسْأَلُ؟ فَيَكُونُ قَصْدُهُ مِنَ السُّؤَالِ التَّفَقُّهُ وَالتَّعَلُّمُ لَا التَّعَنُّتُ وَالتَّهَكُّمُ، فَإِنَّ مَنْ سَاءَ قَصْدُهُ فِي سُؤَالِهِ يُحْرَمُ بَرَكَةَ الْعِلْمِ وَيُمْنَعُ مَنْفَعَتَهُ.

وَفِي النَّاسِ مَنْ يَسْأَلُ وَلَهُ فِي سُؤَالِهِ قَصْدٌ بَاطِنٌ يُرِيدُ التَّوَصُّلَ بِهِ إِلَىٰ مَقْصُودٍ لَهُ، فَإِذَا غَفَلَ عَنْهُ الْمُفْتِي وَأَفْتَاهُ بِمَا يُرِيدُ فَرِحَ بِهِ وَأَشَاعَهُ، وإِذَا تَنَبَّهَ إِلَىٰ قَصْدِهِ حَالَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مُرَادِهِ وَزَجَرُهُ عَنْ غَيِّهِ.

قَالَ الْقَرَافِيُّ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ فِي كِتَابِهِ «الْإِحْكَامُ»: سُئِلْتُ مَرَّةً عَنْ عَقْدِ النِّكَاحِ بِالْقَاهِرَةِ هَلْ يَجُوزُ أَمْ لَا؟ فَارْتَبْتُ وَقُلْتُ لَهُ -أَي للسَّائِلِ-: مَا أُفْتِيكَ حَتَّىٰ تُبَيِّنَ لِي مَا الْمَقْصُودُ بِهَذَا الكَلَامُ، فَإِنَّ كُلَّ أَحَدٍ يَعْلَمُ أَنَّ عَقْدَ النِّكَاحِ بِالْقَاهِرَةِ جَائِزٌ؟ فَلَمْ أَزَلْ بِهِ حَتَّىٰ قَالَ: إِنَّا أَرَدْنَا أَن نَعْقِدَهُ خَارِجَ الْقَاهِرَةِ فَمُنِعْنَا لِأَنَّهُ اسْتِحْلَالٌ -يَعْنِي نِكَاحَ تَحْلِيلٍ، وَهُوَ نَوْعٌ مِنَ الْأَنْكِحَةِ الْمُحَرَّمَةِ- فَجِئْنَا لِلْقَاهِرَةِ، فَقُلْتُ لَهُ: لَا يَجُوزُ لَا بِالْقَاهِرَةِ وَلَا بِغَيْرِهَا.

وَوَقَعَ مِثْلُ هٰذَا لِأَبِي الْعَبَّاسِ ابْنِ تَيْمِيَّةَ الْحَفِيدِ فِي فَتْوَىٰ تَتَعَلَّقُ بِأَهْلِ الذِّمَّةِ ذَكَرَهَا تِلْمِيذُهُ الْبَارُّ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ فِي كِتَابِهِ «إِعْلَامِ الْمُوَقِّعِينَ» رُدَّتْ عَلَيْهِ غَيْرَ مَرَّةٍ فِي وَجْهٍ غَيْرِ الْوَجْهِ السَّابِقِ لَهَا، فَكَانَ يَقُولُ: لَا يَجُوزُ، حَتَّىٰ قَالَ فِي آخِرِ مَرَّةٍ: هِيَ الْمَسْأَلَةُ الْمُعَيَّنَةُ وَإِنْ خَرَجَتْ فِي عِدَّةِ قَوَالِبِ.

أَمَّا الْأَصْلُ الثَّانِي فَالتَّفَطُّنُ إِلَىٰ مَا يسْأَلُ عَنْهُ فَلَا تَسْأَلْ عَمَّا لَا نَفْعَ فِيهِ، إِمَّا بِالنَّظَرِ إِلَىٰ حَالِكَ أَوْ بِالنَّظَرِ إِلَىٰ الْمَسْأَلَةِ نَفْسِهَا.

سَأَلَ رَجُلٌ أَحْمَدَ ابْنِ حَنْبَلٍ عَنْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ أَمُسْلِمُونَ هُمْ؟ فَقَالَ لَهُ: أَحْكَمْتَ الْعِلْمَ حَتَّىٰ تَسْأَلَ عَنْ ذَا ؟!.

وَمِثْلُهُ السُّؤَالُ عَمَّا لَمْ يَقَعْ أَوْ مَا لَا يُحَدَّثُ بِهِ كُلُّ أَحَدٍ، وَإِنَّمَا يُخَصُّ بِهِ قَوْمٌ دُونَ قَوْمٍ.

أَمَّا الْأَصْلُ الثَّالِثُ: فَالانْتِبَاهُ إِلَىٰ صَلَاحِيَّةِ حَالِ الشَّيْخِ لِلْإِجَابَةِ عَنْ سُؤَالِهِ فَلَا يَسْأَلُهُ فِي حَالٍ تَمْنَعُهُ؛ كَكَوْنِهِ مَهْمُومًا، أَوْ مُتَفَكِّرًا، أَوْ مَاشِيًا فِي طَرِيقٍ، أَوْ رَاكِبًا سَيَّارَتَهُ؛ بَلْ يَتَحَيَّنُ طِيبَ نَفْسِهِ.

قَالَ قَتَادَةُ رَحِمَهُ اللهُ سَأَلْتُ أَبَا الطُّفَيْلِي مَسْأَلَةً، فَقَالَ: إِنَّ لِكُلِّ مَقامٍ مَقَالًا.

وَسَأَلَ رَجُلٌ ابْنَ الْمُبَارَكِ عَنْ حَدِيثٍ وَهُوَ يَمْشِي فَقَالَ: لَيْسَ هٰذَا مِنْ تَوْقِيرِ الْعِلْمِ.

وَكَانَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي لَيْلَىٰ يَكْرَهُ أَنْ يُسْأَلَ وَهُوَ يَمْشِي.

أَمَّا الْأَصْلُ الرَّابِعُ: فَتَيَقُّظُ السَّائِلِ إِلَىٰ كَيْفِيَّةِ سُؤَالِهِ بِإِخْرَاجِهِ فِي صُورَةٍ حَسَنَةٍ مُتَأَدِّبَةٍ، فَيُقَدِّمُ الدُّعَاءَ لِلشَّيْخِ وَيُبَجِّلُهُ فِي خِطَابِهِ، وَلَا تَكُونُ مُخَاطَبَتُهُ لَهُ كَمُخَاطَبَتِهِ أَهْلَ السُّوقِ وَأَخْلَاطِ الْعَوَامِّ.

قَالَ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي عُثْمَانَ: كُنَّا عِنْدَ يَحْيَىٰ بْنِ مَعِينٍ فَجَاءَهُ رَجُلٌ مُسْتَعْجِلٌ فَقَالَ: يَا أَبَا زَكَرِيَّا حَدِّثْنِي بِشَيْءٍ أَذْكُرُكَ بِهِ، فَقَالَ يَحْيَىٰ: أُذْكُرْنِي أَنَّكَ سَأَلْتَنِي أَنْ أُحَدِّثَكَ فَلَمْ أَفْعَلْ.

وَإِذَا تَأَمَّلْتَ السُّؤَالَاتِ الْوَارِدَةِ عَلَىٰ أَهْلِ الْعِلْمِ الْيَوْمَ رَأَيْتَ فِي كَثِيرٍ مِنْهَا سَلْبَ التَّحَفُّظِ وَسَفْسَافَ الْأَدَبِ.

فَتَرَىٰ مِنْ يَسْأَلُ مُتَهَكِّمًا أَوْ يَسْأَلُ مُحْتَقِرًا يَسْأَلُونَ عَمَّا لَمْ يَقَعْ أَوْ مَا وَقَعَ وَلَا يَنْفَعُ لَا يَتَخَيَّرُونَ وَقْتَ الْإِيرَادِ الْمُنَاسِبِ وَلَا يَتَلَطَّفُونَ فِي عَرْضِ الْمَطَالِبِ، فَسُؤَالَاتُهُمْ مَفَاتِيحُ الْفِتَنِ وَأَسْبَابُ الْمِحَنِ، وَوَيْلٌ لَهُم مِمَّا يَصْنَعُونَ، وَمَا أَحْوَجَ هَؤُلَاءِ إِلَىٰ مَقَالَةِ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ رَحِمَهُ اللهُ لَمَّا سَأَلَهُ رَجُلٌ عَنْ شَيْءٍ فَخَلَطَ عَلَيْهِ فَقَالَ زَيْدٌ: اذْهَبْ فَتَعَلَّمْ كَيْفَ تَسْأَلُ، ثُمَّ تَعَالَ فَسَلْ.

وَكَمْ هُمُ الْمُحْتَاجُونَ الْيَوْمَ إِلَىٰ مِثْلِ مَقَالَةِ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ رَحِمَهُ اللهُ؟!

ذكر المصنف وفقه الله (**الْمَعْقِدُ الثَّامِنَ عَشَرَ**) من معاقد تعظيم العلم وهو: (**التَّحَفُّظُ فِي مَسْأَلَةِ الْعَالِمِ**) أي: حفظ النَّفس عن الخطأ بالتوقِّي فيها.

وموجبه: المذكور في قوله: (فِرَارًا مِنْ مَسَائِلِ الشَّغْبِ وَحِفْظًا لِهَيْبَةِ الْعَالِمِ)، والشغْب بسكون الغين، وهو تهييج الشر وتحريكه.

ثم ذكر أن المفلح في السؤال المتحفظ فيه هو مَنْ أعمل أربعة أصول:

(**أَوَّلُهَا: الْفِكْرُ فِي سُؤَالِهِ لِمَاذَا يَسْأَلُ؟**)، أي: أي شيء يحمله علىٰ السؤال، فيكون قصده من السؤال التفقه والتعلم، لا التعنت والتهكم، فإن مَنْ ساء قصده في سؤاله يُحرَم بركة العلم ويُمنع منفعته.

ثم ذكر من أحوال الناس أن منهم (مَنْ يَسْأَلُ وَلَهُ فِي سُؤَالِهِ قَصْدٌ بَاطِنٌ يُرِيدُ التَّوَصُّلَ بِهِ إِلَىٰ مَقْصُودٍ) باطل (لَهُ) كالمذكور في المسألتين المعروضتين علىٰ القرافي وابن تيمية الحفيد رحمهما الله.

ثم ذكر الأصل الثاني: وهو (التَّفَطُّنُ إِلَىٰ مَا يسْأَلُ عَنْهُ)، فلا يسأل عن شيء إلا شيئًا ينفعه، وأمّا لا ينفعه فلا ينبغي له أن يسأل فيه كسائل (أَحْمَدَ ابْنِ حَنْبَلٍ عَنْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ أَمُسْلِمُونَ هُمْ؟)

ثم ذكر الأصل الثالث: وهو (الْانْتِبَاهُ إِلَىٰ صَلَاحِيَّةِ حَالِ الشَّيْخِ لِلْإِجَابَةِ عَنْ سُؤَالِهِ)، أي: تهيُّؤه للجواب، فإنه ربما كان مهمومًا أو مغمومًا أو مشغولًا في طريق أو في حال فلم يحسن سؤاله، وذكر من المأثور عن مَنْ سبق شيئًا في ذلك.

ثم ذكر الأصل الرابع: وهو (تَيَقُّظُ السَّائِلِ إِلَىٰ كَيْفِيَّةِ سُؤَالِهِ) بأن يُخرجه (فِي صُورَةٍ حَسَنَةٍ مُتَأَدِّبَةٍ، فَيُقَدِّمُ الدُّعَاءَ لِلشَّيْخِ وَيُبَجِّلُهُ فِي خِطَابِهِ)، أي: يعظمه، ثم يعرض سؤاله عليه، (وَلَا تَكُونُ مُخَاطَبَتُهُ) شيخه (كَمُخَاطَبَتِهِ أَهْلَ السُّوقِ وَأَخْلَاطَ الْعَوَامِّ).

ثم ذكر الداهية المُدهية من سؤالات أهل العصر في حالها فقال: (وَإِذَا تَأَمَّلْتَ السُّؤَالَاتِ الْوَارِدَةَ عَلَىٰ أَهْلِ الْعِلْمِ الْيَوْمَ رَأَيْتَ فِي كَثِيرٍ مِنْهَا سَلْبَ التَّحَفُّظِ وَسَفْسَافَ الْأَدَبِ.).

ثم ذكر من أحوالهم: (فَتَرَىٰ مِنْ يَسْأَلُ مُتَهَكِّمًا أَوْ يَسْأَلُ مُحْتَقِرًا يَسْأَلُونَ عَمَّا لَمْ يَقَعْ أَوْ مَا وَقَعَ وَلَا يَنْفَعُ لَا يَتَخَيَّرُونَ وَقْتَ الإِيرَادِ الْمُنَاسِبِ وَلَا يَتَلَطَّفُونَ فِي عَرْضِ الْمَطَالِبِ، فَسُؤَالَاتُهُمْ مَفَاتِيحُ الْفِتَنِ وَأَسْبَابُ الْمِحَنِ، وَوَيْلٌ لَّهُم مِمَّا يَصْنَعُونَ).

ثم ذكر قول زيد بن أسلم لما خلّط سائل فقال له: (اذْهَبْ فَتَعَلَّمْ كَيْفَ تَسْأَلْ، ثُمَّ تَعَالَ فَسَلْ).

وقوله: (سَفْسَافَ الْأَدَبِ): أي رديئه، فالسَّفساف من كل شيء هو الرديء.

الْمَعْقِدُ التَّاسِعَ عَشَرَ
شَغَفُ الْقَلْبِ بِالْعِلْمِ وَغَلَبَتُهُ عَلَيْهِ

فَصِدْقُ الطَّلَبِ لَهُ يُوجِبُ مَحَبَّتَهُ وَتَعَلُّقَ الْقَلْبِ بِهِ، وَلَا يَنَالُ الْعَبْدُ دَرَجَةَ الْعِلْمِ حَتَّىٰ تَكُونَ لَذَّتُهُ الْكُبْرَىٰ فِيهِ.

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ فِي «مِفْتَاحِ دَارِ السَّعَادَةِ»: وَمَنْ لَمْ يُغَلِّبْ لَذَّةَ إِدْرَاكِهِ وَشَهْوَتِهِ عَلَىٰ لَذَّةِ جِسْمِهِ وَشَهْوَةِ نَفْسِهِ لَمْ يَنَلْ دَرَجَةَ الْعِلْمِ أَبَدًا وَإِنَّمَا تُنَالُ لَذَّةُ الْعِلْمِ بِثَلَاثَةِ أُمُورٍ ذَكَرَهَا أَبُو عَبْدِ اللهِ بْنِ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ فِي كِتَابِهِ السَّالِفِ:

أَحَدِهَا: بَذْلُ الْوُسْعِ وَالْجُهْدِ.

وَثَانِيهَا: صِدْقُ الطَّلَبِ.

وَثَالِثِهَا: صِحَّةُ النِّيَّةِ وَالْإِخْلَاصِ.

وَلَا تَتِمُّ هٰذِهِ الْأُمُورُ الثَّلَاثَةُ إِلَّا مَعَ دَفْعِ كُلِّ مَا يُشْغِلُ عَنِ الْقَلْبِ.

وَمَنْ سَبَرَ هٰذِهِ اللَّذَّةَ فِي أَحْوَالِ السَّابِقِينَ مِنْ عُلَمَاءِ الْأُمَّةِ رَأَىٰ عَجَبًا، فَلِسَانُ أَحَدِهِمْ:

مَا لَذَّتِي إِلَّا رِوَايَةُ مُسْنَدٍ ... قَدْ قُيِّدَتْ بِفَصَاحَةِ الْأَلْفَاظِ
وَمَجَالِسٌ فِيهَا تَحِلُّ سَكِينَةٌ ... وَمُذَاكَرَاتُ مَعَاشِرِ الْحُفَّاظِ

إِنَّ لَذَّةَ الْعِلْمِ فَوْقَ لَذَّةِ السُّلْطَانِ وَالْحُكْمِ الَّتِي تَتَطَلَّعُ إِلَيْهَا نُفُوسٌ كَثِيرَةٌ، وَتُبْذَلُ لِأَجْلِهَا أَمْوَالٌ وَفِيرَةٌ، وَتُسْفَكُ دِمَاءٌ غَزِيرَةٌ.

بَاتَ أَبُو جَعْفَرٍ النَّسَفِيُّ مَهْمُومًا مِنْ ضِيقِ الْبَالِ وَسُوءِ الْحَالِ وَكَثْرَةِ الْعِيَالِ فَوَقَعَ فِي خَاطِرِهِ فَرْعٌ مِنْ فُرُوعِ مَذْهَبِهِ -وَكَانَ رَحِمَهُ اللهُ حَنَفِيًّا- فَأُعْجِبَ بِهِ فَقَامَ يَرْقُصُ فِي دَارِهِ، وَيَقُولُ: (أَيْنَ الْمُلُوكُ وَأَبْنَاءُ الْمُلُوكِ؟! أَيْنَ الْمُلُوكُ وَأَبْنَاءُ الْمُلُوكِ؟!)

إِذَا خَاضَ فِي بَحْرِ التَّفَكُّرِ خَاطِرِي ... عَلَىٰ دُرَّةٍ مِنْ مُعْضِلَاتِ الْمَطَالِبِ
حَقَرْتُ مُلُوكَ الْأَرْضِ فِي نَيْلِ مَا حَوَوْا ... وَنِلْتُ الْمُنَىٰ بِالْكُتْبِ لَا بِالْكَتَائِبِ

وَلِهٰذَا كَانَتِ الْمُلُوكُ تَتُوقُ إِلَىٰ لَذَّةِ الْعِلْمِ وَتُحِسُّ فَقْدَهَا وَتَطْلُبُ تَحْصِيلَهَا.

قِيلَ لِأَبِي جَعْفَرٍ الْمَنْصُورِ -الْخَلِيفَةِ الْعَبَّاسِيِّ الْمَشْهُورِ الَّذِي كَانَتْ مَمَالِكُهُ تَمْلَأُ الشَّرْقَ وَالْغَرْبَ-: هَلْ بَقِيَ مِنْ لَذَّاتِ الدُّنْيَا شَيْءٌ لَمْ تَنَلْهُ؟ فَقَالَ وَهُوَ مُسْتَوٍ عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ وَسَرِيرِ مُلْكِهِ: بَقِيَتْ خَصْلَةٌ أَنْ أَقْعُدَ عَلَىٰ

مِصْطَبَةٍ وَحَوْلِي أَصْحَابُ الْحَدِيثِ -أَيْ طُلَّابُ الْعِلْمِ- فَيَقُولُ الْمُسْتَمْلِي: مَنْ ذَكَرْتَ رَحِمَكَ اللهُ؟ يَعْنِي فَيَقُولُ: حَدَّثَنَا فُلَانٌ، قَال: حَدَّثَنَا فُلَان، وَيَسُوقُ الْأَحَادِيثَ الْمُسْنَدَةَ.

فَانْظُرْ إِلَى شِدَّةِ افْتِقَارِ هٰذَا الْخَلِيفَةِ إِلَى لَذَّةِ الْعِلْمِ وَطَلَبِهِ تَحْصِيلَهَا وجَوْعَتَهُ إِلَيْهَا.

وَمَتَى عُمِرَ الْقَلْبُ بِلَذَّةِ الْعِلْمِ سَقَطَتْ لَذَّاتُ الْعَادَاتِ وَذَهَلَتِ النَّفْسُ عَنْهَا، فَالنَّظْرُ بْنُ شُمَيْلٍ يَقُولُ: لَا يَجِدُ الْمَرْءُ لَذَّةَ الْعِلْمِ حَتَّى يَجُوعَ وَيَنْسَى جُوعَهُ.

بَل تَسْتَحِيلُ الْآلَامُ لَذَّةً بِهَذِهِ اللَّذَّةِ.

وَمُحَمَّدُ بْنُ هَارُونَ الدِّمَشْقِيُّ يَقُولُ:

لَمَحْبَرَةٌ تُجَالِسُنِي نَهَارِي ... أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أُنْسِ الصَّدِيقِ
وَرُزْمَةُ كَاغِدٍ فِي الْبَيْتِ عِنْدِي ... أَحَبُّ إِلَيَّ مِن عَدْلِ الدَّقِيقِ
وَلَطْمَةُ عَالِمٍ فِي الْخَدِّ مِنِّي ... أَلَذُّ لَدَيَّ مِنْ شُرْبِ الرَّحِيقِ.

وَلَا تَعجَبْ فَمَا هَذِهِ الْأَحْوَالُ إِلَّا مَسُّ عِشْقِ الْعِلْمِ، فَابْنُ الْقَيِّمِ يَقُولُ فِي «رَوْضَةِ الْمُحِبِّينَ»: وَأَمَّا عُشَّاقُ الْعِلْمِ فَأَعْظَمُ شَغَفًا بِهِ وَعِشْقًا لَهُ مِنْ كُلِّ عَاشِقٍ بِمَعْشُوقِهِ، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ لَا يَشْغَلُهُ عَنْهُ أَجْمَلُ صُورَةٍ مِنَ الْبَشَرِ، فَأَيْنَ هٰذَا الشَّغَفُ يَا طُلَّابَ الْعِلْمِ مِمَّنْ يُقَدِّمُ حَظَّهُ مِنْ عِرسِهِ عَلَى حَظِّهِ مِنْ دَرْسِهِ، وَيَكُونُ جُلُوسُهُ إِلَى السُّمَّارِ، وَشُيُوخِ القَمْرَاءِ أُحبُّ إِلَيْهِ مِنَ الْجُلُوسِ إِلَى الْعُلَمَاءِ، وَتَقْوَى عَزِيمَتُهُ لِلتَّنَقُّلِ فِي الْفَلَوَاتِ وَلَا تَقْوَى عَلَى السَّيْرِ فِي نَقْلِ الْمَعْلُومَاتِ، وَيَنْهَضُ نَشِيطًا لِقَنْصِ الطَّيْرِ وَيَرْقُدُ كَسَلًا عَن صَيْدِ الْخَيْرِ، فَمَا حَظُّ هَؤُلَاءِ -وَكَثِيرٌ هُمْ- مَا حَظُّهُم مِن تَعْظِيمِ الْعِلْمِ وَقُلُوبُهُمْ مَأْسُورَةٌ بِمَحَبَّةِ غَيْرِهِ.

ذكر المصنف وفقه الله (**الْمَعْقِدُ التَّاسِعَ عَشَرَ**) من مقاعد تعظيم العلم وهو (**شَغَفُ الْقَلْبِ بِالْعِلْمِ وَغَلَبَتُهُ عَلَيْهِ**) أي: محبّته العلم حتى يبلغ شغاف قلبه، وشِغاف القلب هو غشاؤه، فيبلغ حبُّه العلم باطن قلبه، (فَصِدْقُ الطَّلَبِ لَهُ يُوجِبُ مَحَبَّتَهُ وَتَعَلُّقَ الْقَلْبِ بِهِ).

ثم ذكر أن المرء يحظى بلذة العلم بإحراز ثلاثة أمور، ذكرها ابن القيم في «مفتاح دار السعادة»:

(أَحَدِهَا: بَذْلُ الْوُسْعِ)، وهو الطاقة (وَالْجُهْدِ) فيه.

(وَثَانِيهَا: صِدْقُ الطَّلَبِ).

(وَثَالِثِهَا: صِحَّةُ النِّيَّةِ وَالْإِخْلَاصِ..).

ثم قال: (وَلَا تَتِمُّ هٰذِهِ الْأُمُورُ الثَّلَاثَةُ إِلَّا مَع دَفْعِ كُلِّ مَا يُشْغِلُ عَنِ الْقَلْبِ)

ثم ذكر بعد من أخبار الأوائل الماضيين من إيناس هذه اللذة ومحبتها والشغف بها ما يخبر عن ذلك أصدق خبر حتىٰ كان الملوك يتوقون إليها ويرجونها.

وذكر خبر أبي جعفر المنصور وفيه قوله: (بَقِيَتْ خَصْلَةٌ أَنْ أَقْعُدَ عَلَىٰ مِصْطَبَةٍ وَحَوْلِي أَصْحَابُ الْحَدِيثِ)، أي: علىٰ مكان مرتفع ليروي الحديث فيُكتَب عنه.

ثم ذكر أن هذه الأحوال داعيها هو عشق العلم وغلبته علىٰ القلب، ثم لوح بأحوال مذمومة يقع فيها بعض المنتسبين إلىٰ العلم مما يدل علىٰ ضعف محبتهم له، كان منها قوله: (وَيَكُونُ جُلُوسُهُ إِلَىٰ السُّمَّارِ) أي أصحاب السمر، (وَشُيُوخِ القَمْرَاءِ أُحَبُّ إِلَيْهِ مِنَ الْجُلُوس إِلَىٰ الْعُلَمَاءِ)، وشيوخ القمراء قال محمد بن عقبة الشيباني: شيوخ دُهْرِيُّون -أي طويلة أعمارهم-، يجتمعون في ليالي القمر، أي: الليالي المقمرة، فيتحدثون بأيام الخلفاء ولا يعرف أحدهم كيف يتوضأ. فتجد من المنتسبين إلىٰ العلم مَنْ يأنس بهؤلاء ويشتغل بمسامرتهم عن الانتفاع بالعلماء.

الْمَعْقِدُ الْعِشْرُونَ
حِفْظُ الْوَقْتِ فِي الْعِلْمِ

إِذَا كَانَ الْعِلْمُ أَشْرَفَ مَطْلُوبٍ وَالْعُمْرُ يُطْوَىٰ كَجَلِيدٍ يَذُوبُ، فَعَيْنُ الْعَقْلِ حِفْظُ الْوَقْتِ فِيهِ، وَالْخَوْفُ مِنْ تَقَضِّيهِ بِلَا فَائِدَةٍ، وَالسُّؤَالُ عَنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَحْمِلُنِي وَإِيَّاكَ عَلَىٰ الْمُبَالَغَةِ فِي رِعَايَتِهِ.

قَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ رَحِمَهُ اللهُ فِي «صَيْدِ خَاطِرِهِ»: يَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَعْرِفَ شَرَفَ زَمَانِهِ وَقَدْرَ وَقْتِهِ فَلَا يُضَيِّعَ مِنْهُ لَحْظَةً فِي غَيْرِ قُرْبَةٍ، وَيُقَدِّمَ فِيهِ الْأَفْضَلَ فَالْأَفْضَلَ مِنَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ.

وَمِنْ هُنَا عَظُمَتْ رِعَايَةُ الْعُلَمَاءِ لِلْوَقْتِ حَتَّىٰ قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْبَاقِي الْبَزَّازُ: مَا ضَيَّعْتُ سَاعَةً مِّنْ عُمْرِي فِي لَهْوٍ أَوْ لَعِبٍ.

وَقَالَ أَبُو الْوَفَاءِ بْنُ عَقِيلٍ -الَّذِي صَنَّفَ كِتَابَ الْفُنُونِ فِي ثَمَانِمِائَةِ مُجَلَّدٍ-: إِنِّي لَا يَحِلُّ لِي أَنْ أُضَيِّعَ سَاعَةً مِّنْ عُمْرِي.

وَبَلَغَتْ بِهِمُ الْحَالُ أَنْ يُقْرَأَ عَلَيْهِمْ حَالَ الْأَكْلِ، فَلَقَدْ كَانَ أَحْمَدُ بْنُ سُلَيْمَانَ الْبُلْقَاسِيُّ الْمُتَوَفَّىٰ عَنْ ثَمَانِيَةٍ وَعِشْرِينَ سَنَةٍ يُقْرِئُ الْقِرَاءَاتِ فِي حَالِ أَكْلِهِ خَوْفًا مِنْ ضَيَاعِ وَقْتِهِ فِي غَيْرِهَا، فَكَانَ أَصْحَابُهُ يَقْرَؤُونَ عَلَيْهِ وَهُوَ يَتَنَاوَلُ مَأْكَلَهُ وَمَشْرَبَهُ.

بَلْ كَانَ يُقْرَأُ عَلَيْهِمْ وَهُمْ فِي دَارِ الْخَلَاءِ فَكَانَ ابْنُ تَيْمِيَّةَ الْجَدُّ رَحِمَهُ اللهُ إِذَا دَخَلَ الْخَلَاءَ لِقَضَاءِ الْحَاجَةِ قَالَ لِبَعْضِ مَنْ حَوْلَهُ: اقْرَأْ فِي هٰذَا الْكِتَابِ وَارْفَعْ صَوْتَكَ.

وَتَجَلَّتْ هٰذِهِ الرِّعَايَةُ لِلْوَقْتِ عِنْدَ الْقَوْمِ رَحِمَهُمُ اللهُ فِي مَعَالِمَ عِدَّةٍ لَم تَبْلُغْهَا الْحَضَارَاتُ الْإِنْسَانِيَّةُ قَاطِبَةً.

مِنْهَا: كَثْرَةُ دُرُوسِهِمْ، فقَدْ كَانَ النَّوَوِي رَحِمَهُ اللهُ يَقْرَأُ كُلَّ يَوْمٍ اثْنَيْ عَشَرَ دَرْسًا عَلَىٰ مَشَايِخِهِ، وَالشَّوْكَانِيُّ رَحِمَهُ اللهُ صَاحِبُ «نَيْلِ الْأَوْطَارِ» تَبْلُغُ دُرُوسُهُ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ ثَلَاثَةَ عَشَرَ دَرْسًا مِنْهَا مَا يَأْخُذُهُ عَنْ مَشَايِخِهِ وَمِنْهَا مَا يَأْخُذُهُ عَنْهُ تَلَامِذَتُهُ.

وَأَرْبَىٰ مَحْمُودُ الْآلُوسِي صَاحِبُ التَّفْسِيرِ عَلَيْهِمْ جَمِيعًا فَقَدْ كَانَ يُدَرِّسُ فِي الْيَوْمِ أَرْبَعَةً وَعِشْرِينَ دَرْسًا، وَلَمَّا اشْتَغَلَ بِالتَّفْسِيرِ وَالْإِفْتَاءِ نَقَصَتْ إِلَىٰ ثَلَاثَةَ عَشَرَ دَرْسًا.

ثُمَّ رَأَيْتُ فِي تَرْجَمَةِ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي بَكْرِ بْنِ جَمَاعَةٍ أَنَّ دُرُوسَهُ تَبْلُغُ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ نَحْوَ خَمْسِينَ دَرْسًا.

وَمِنْهَا: كَثْرَةُ مَدْرُوسَاتِهِمْ، فَقَدْ دَرَسَ ابْنُ التَّبَّانِ «الْمُدَوَّنَةَ» نَحْوَ أَلْفِ مَرَّةٍ، وَرُبَّمَا وُجِدَ فِي بَعْضِ كُتُبِ

عَبَّاس بْن الْفَارِسي بِخَطِّه: دَرَسْتُه أَلْف مَرَّة.

وَكَرَّرَ غَالِبُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْمَعْرُوْفِ بْن عَطِيَّة وَالِدِ صَاحِبِ التَّفْسِيْرِ الْمَشْهُورِ «صَحِيحَ الْبُخَارِي» سَبْعَمِائَة مَرَّة.

وَمِنْهَا: كَثْرَةُ مَكْتُوبَاتِهِم، فَأَحْمَدُ بْن عَبْدِ الدَّائِمِ الْمَقْدِسِيُّ أَحَدُ شُيُوخِ الْعِلْمِ مِنَ الْحَنَابِلَةِ كَتَبَ بِيَدِهِ أَلْفَي مُجَلَّدٍ، وَوَقَع مِثْلُه لِابْن الْجَوْزِي.

وَمِنْهَا: كَثْرَةُ مَقْرُوءَاتِهِم، فَابْنُ الْجَوْزِيِّ رَحِمَهُ اللهُ طَالَع وَهُوَ بَعْدُ فِي الطَّلَبِ عِشْرِيْن أَلْف مُجَلَّدٍ.

وَمِنْهَا: كَثْرَة شُيُوخِهِم، فَالَّذِينَ جَاوَزَ عَدَدُ شُيُوخِهِمْ الْأَلْفَ كَثِيرٌ فِي هٰذِه الْأُمَّة، وَأَعْجَبُ مَا ذُكِرَ أَنَّ أَبَا سَعْدٍ السَّمْعَانِي بَلَغ عَدَدُ شُيُوخِهِ سَبْعَةَ آلَافِ شَيْخٍ، قَال ابْنُ النَّجَّارِ فِي «ذَيْلِ تَارِيخِ بَغْدَاد»، وَهٰذَا شَيْءٌ لَـمْ يَبْلُغْهُ أَحَدٌ.

وَمِنْهَا: كَثْرَةُ مَسْمُوعَاتِهِمْ ومَقْرُوءَاتِهِم عَلَىٰ شُيُوخِهِم مِنَ التَّصَانِيفِ الْمُطَوَّلَة وَالْأَجْزَاء الصَّغِيرَة، فَقَدْ تُعَدُّ بِالْآلَافِ الْمُؤَلَّفَةِ كَمَا وَقَعَ لِابْنِ السَّمْعَانِيِّ الْمَذْكُورِ وَصَاحِبِهِ ابْنِ عَسَاكِرَ فِي جَمَاعَةٍ آخَرِينَ.

وَمِنْهَا: كَثْرَةُ مُصَنَّفَاتِهِمْ، حَتَّىٰ عُدَّت أَلْفَ مُصَنَّفٍ لِجَمَاعَةٍ مِنَ عُلَمَاءِ هٰذِهِ الْأُمَّةِ مِنْهُم عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ حَبِيْبٍ عَالِمُ الْأَنْدَلُسِ وَأَبُو الْفَرَجِ ابْنِ الْجَوْزِيِّ.

فَاحْفَظْ أَيُّهَا الطَّالِبُ وَقْتَك فَلَقَدْ أَبْلَغَ الْوَزِيرُ الصَّالِحُ ابْنُ هُبَيْرَة فِي نُصْحِك بِقَوْلِهِ:

وَالْوَقْتُ أَنْفَسُ مَا عُنِيت بِحِفْظِهِ ... وَأَرَاهُ أَسْهَلُ مَا عَلَيْك يَضِيعُ.

ذكر المصنف وفقه الله المعقد المتمم للعشرين وهو: (**حِفْظُ الْوَقْتِ فِي الْعِلْمِ**) لأن (الْعِلْمَ أَشْرَف مَطْلُوبٍ وَالْعُمْرُ يُطْوَىٰ كَجَلِيدٍ يَذُوبُ) فلا يُمكن إحرازه إلا بحفظ الوقت فيه، ومن هنا عظُمت رعاية العلماء للوقت، وبلغت بهم الحال أن يُقرأ عليهم حال الأكل؛ بل كان يُقرأ عليهم وهم في دار الخلاء، كالمذكور هنا عن ابن تيمية الجدّ.

ومثله في قراءة ابن أبي حاتم علىٰ أبيه، وما وقع منهما هما وغيرهما لا يباين إعظام العلم، فإن القارئ كان خارج الكنيف مباعدًا له، وإنما أراد حفظ الوقت بالانتفاع به.

ثم ذكر جملة من المعالم التي برّزوا فيها في حفظ الوقت حتىٰ صارت أعلامًا شهيرة في هٰذه الأمة؛ ككثرة دروسهم وكثرة مدروساتهم، وكثرة مقروءاتهم، وكثرة شيوخهم، وكثرة مسموعاتهم، وكثرة

مصنفاتهم، ممَّا لا يُنال مثله إلا بحفظ الوقت.

ثم ختم ببيت ابن هبيرة: (وَالْوَقْتُ أَنْفَسُ مَا عُنِيتَ بِحِفْظِهِ) أي: شُغلت بحفظه. (وَأُرَاهُ أَسْهَلُ مَا عَلَيْكَ يَضِيعُ) وأُراه بالضم: بمعنىٰ أظن، ويجيء أيضًا بالفتح (أَرَاهُ) بمعنىٰ أعلم.

الْخَاتِمَة

إِلَى هُنَا بَلَغَ الْقَوْلُ التَّمَامَ وَحَسُنَ قَطْعُ الكَلَامِ بِالْخِتَامِ، فَيَا شُدَاةَ الْعِلْمِ وطُلَّابَهُ ويَا قُصَّادَ الْفِقْهِ وَأَرْبَابَهُ. امْتَثِلُوا مَعَاقِدَ التَّعْظِيمِ وَأَنْتُمْ تُقْبِلُونَ عَلَىٰ مَقَاعِدِ التَّعْلِيمِ؛ تَجِدُوا نَفْعَهُ وَتَحْمَدُوا عَاقِبَتَهُ، وَإِيَّاكُمْ وَالتَّهَاوُنَ بِهَا وَالْعُزُوفَ عَنْهَا، فَإِنَّهَا مِفْتَاحُ الْعِلْمِ وَمِرْقَاةُ الْفَهْمِ، وَبِهَا تُجْمَعُ الْعُلُومُ وَتُؤَصَّلُ، وَبِهَا تُيَسَّرُ الْفُنُونُ وَتُحَصَّلُ.

فَشَمِّرُوا عَنْ سَاعِدِ الْجِدِّ وَلَا تُشْغَلُوا بِمَيْعَةِ الْجَدِّ.

وَاحْفَظُوا رَحِمَكُمُ اللهُ قَوْلَ أَبِي عَبْدِ اللهِ ابْنِ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ: (طَالِبَ النُّفُوذِ إِلَى اللهِ وَالدَّارِ الآخِرَةِ؛ بَلْ إِلَىٰ كُلِّ عِلْمٍ وَصِنَاعَةٍ وَرِئَاسَةٍ بِحَيْثُ يَكُونُ رَأْسًا فِي ذَلِكَ مُقْتَدًىٰ بِهِ فِيهِ= يَحْتَاجُ أَنْ يَكُونَ شُجَاعًا مِقْدَامًا حَاكِمًا عَلَىٰ وَهْمِهِ، غَيْرَ مَقْهُورٍ تَحْتَ سُلْطَانِ تَخَيُّلِهِ زَاهِدًا فِي كُلِّ مَا سِوَىٰ مَطْلُوبِهِ، عَاشِقًا لِمَا تَوَجَّهَ إِلَيْهِ، عَارِفًا بِطَرِيقِ الْوُصُولِ إِلَيْهِ، وَالطُّرُقِ الْقَوَاطِعِ عَنْهُ، مِقْدَامَ الْهِمَّةِ، ثَابِتَ الْجَأْشِ، لَا يَثْنِيهِ عَنْ مَطْلُوبِهِ لَوْمُ لَائِمٍ وَلَا عَذْلُ عَاذِلٍ، كَثِيرَ السُّكُونِ، دَائِمَ الْفِكْرِ، غَيْرَ مَائِلٍ مَعَ لَذَّةِ الْمَدْحِ، وَلَا أَلَمِ الذَّمِّ، قَائِمًا بِمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْ أَسْبَابِ مَعُونَتِهِ، لَا تَسْتَفِزُّهُ الْمُعَارَضَاتُ، شِعَارُهُ الصَّبْرُ، وَرَاحَتُهُ التَّعَبُ، مُحِبًّا لِمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ، حَافِظًا لِوَقْتِهِ، لَا يُخَالِطُ النَّاسَ إِلَّا عَلَىٰ حَذَرٍ، كَالطَّائِرِ الَّذِي يَلْتَقِطُ الْحَبَّ بَيْنَهُمْ، قَائِمًا عَلَىٰ نَفْسِهِ بِالرَّغْبَةِ وَالرَّهْبَةِ، طَامِعًا فِي نَتَائِجِ الِاخْتِصَاصِ عَلَىٰ بَنِي جِنْسِهِ، غَيْرَ مُرْسِلٍ شَيْئًا مِنْ حَوَاسِّهِ عَبَثًا، وَلَا مُسَرِّحًا خَوَاطِرَهُ فِي مَرَاتِبِ الْكَوْنِ، وَمِلَاكُ ذَلِكَ هَجْرُ الْعَوَائِدِ وَقَطْعُ الْعَلَائِقِ الْحَائِلَةِ بَيْنَكَ وَبَيْنَ الْمَطْلُوبِ).

انْتَهَىٰ كَلَامُهُ رَحِمَهُ اللهُ، فَمَا أَجْمَلَهُ ذِكْرَىٰ وَتَبْصِرَةً!!

اللَّهُمَّ يَسِّرْ لَنَا تَعْظِيمَ الْعِلْمِ وَإِجْلَالَهُ، وَاجْعَلْنَا مِمَّنْ سَعَىٰ لَهُ كَذَلِكَ فَنَالَهُ، اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ عِلْمًا نَافِعًا وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ، اللَّهُمَّ عَلِّمْنَا مَا يَنْفَعُنَا، وَانْفَعْنَا بِمَا عَلَّمْتَنَا، وَزِدْنَا عِلْمًا وَعَمَلًا.

اللَّهُمَّ اقْسِمْ لَنَا مِنْ خَشْيَتِكَ مَا تَحُولُ بِهِ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مَعْصِيَتِكَ، وَمِنْ طَاعَتِكَ مَا تُبَلِّغُنَا بِهِ جَنَّتَكَ، وَمِنَ الْيَقِينِ مَا تُهَوِّنُ بِهِ عَلَيْنَا مَصَائِبَ الدُّنْيَا، اللَّهُمَّ مَتِّعْنَا بِأَسْمَاعِنَا وَأَبْصَارِنَا وَقُوَّتِنَا أَبَدًا مَا أَحْيَيْتَنَا، وَاجْعَلْهُ الْوَارِثَ مِنَّا.

اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلِ الدُّنْيَا أَكْبَرَ هَمِّنَا، وَلَا مَبْلَغَ عِلْمِنَا، وَلَا إِلَىٰ النَّارِ مَصِيرَنَا، وَلَا تُسَلِّطْ عَلَيْنَا مَنْ لَا يَخَافُكَ فِينَا وَلَا يَرْحَمُنَا.

ختم المصنف وفقه الله كتابه بالنداء في شداة العلم وهم مَن أخذ بطرف منه، فالشَّادي في العلم هو الآخذ طرفًا منه، وقال في ندائه: (امْتَثِلُوا مَعَاقِدَ التَّعْظِيمِ وَأَنْتُمْ تُقْبِلُونَ عَلَىٰ مَقَاعِدِ التَّعْلِيمِ؛ تَجِدُوا نَفْعَهُ وَتَحْمَدُوا عَاقِبَتَهُ).

ثم ذكر من كلام ابن القيم ما يبين الخصال التي ينبغي أن يتحلىٰ بها مَن يطلب الإمامة في الدين، فذكر اثنين وعشرين خصلة ردها بعد ذلك إلىٰ أمرين، فقال: (وَمِلَاكُ ذَلِكَ هَجْرُ الْعَوَائِدِ وَقَطْعُ الْعَلَائِقِ)

ومِلاك الأمر: هو قوامه، ونظامه، وعماده.

فالخصال المتقدمة تنتظم بردِّها إلىٰ هجر العوائد، وقطع العلائق.

والمراد بهجر العوائد: ترك ما جرت عليه عادة الناس.

والمراد بقطع العلائق: الصلات الحائلة بين العبد وبين مطلوبه.

وزاد ابن القيم في موضع آخر (رفض العوائق)، وفرّق بينها وبين العلائق بأن العوائق هي الحواجز الخارجية- أي: التي تعرض للعبد من غيره- وأن العلائق هي التعلقات الداخلية القلبية.

فتحصيل المطلوبات يرجع إلىٰ ثلاثة أصول:

أحدها: هجر العوائد.

وثانيها: قطع العلائق.

وثالثها: رفض العوائق.

فمتىٰ تحرىٰ الإنسان هؤلاء في طلب مقصوده أدركه، وإليها أشرت فقلت:

اهجر عوائدهم واقطع علائقهم   وارفض عوائقهم إن كنت ذا طلب

فنكون بهذا قد فرغنا بحمد لله، من قراءة الكتاب الأول، والحمد لله رب العالمين.